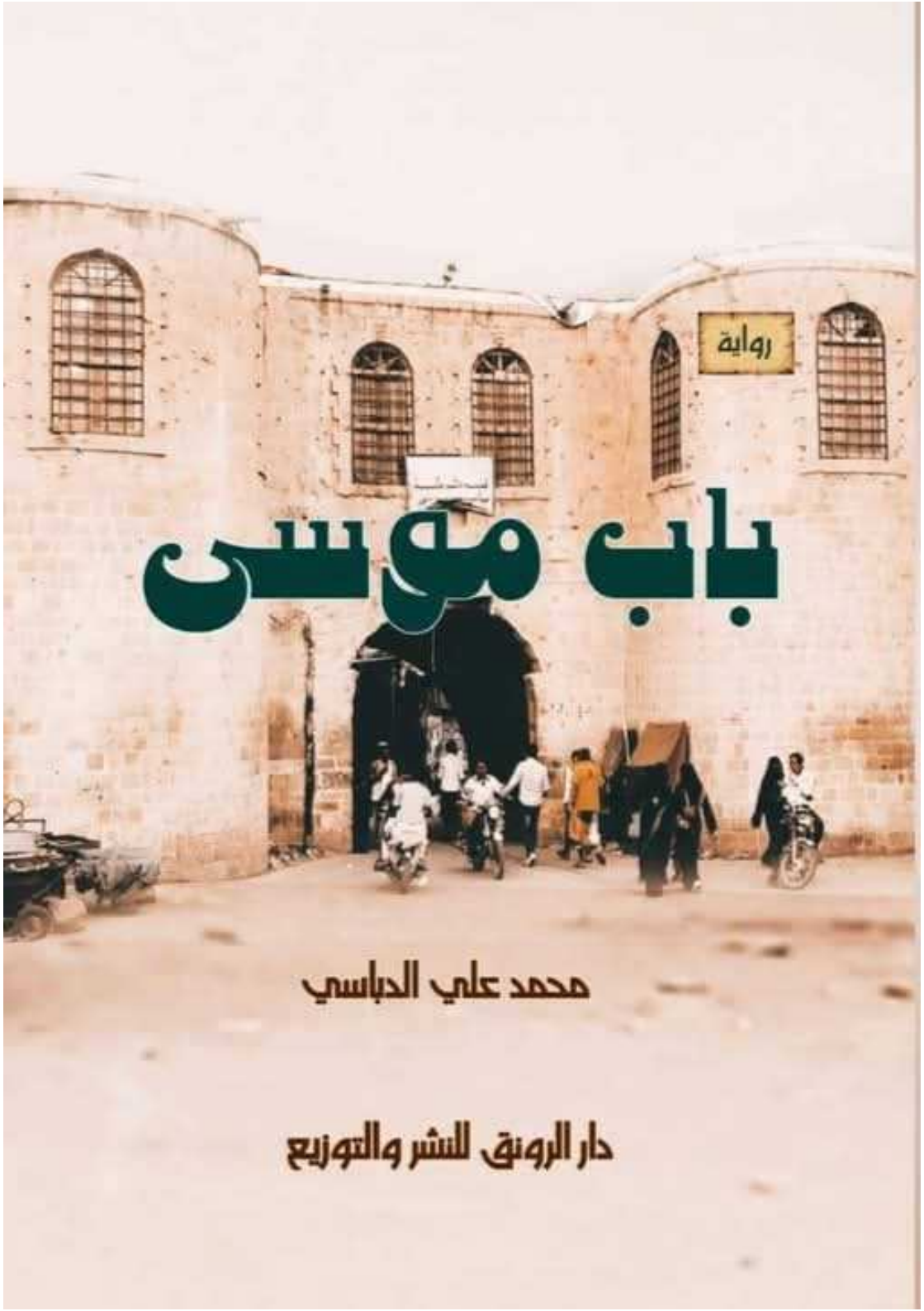
رواية
باب موسى
محمد علي الدباسي
دار الرونق للنشر والتوزيع

باب موسى

روايـة

تأليف

محمد علي الدباسي

2025

اسم العمل: باب موسى.

اسم الكاتب: محمد علي الدباسي.

التدقيق اللغوي: محمد علي الدباسي.

شكر وتقدير: للأستاذة حورية الإرياني.

بريد إلكتروني للمؤلف: maldubasi@gmail.com

تواصل اجتماعي: m19aldubasi

تصميم الغلاف: الأستاذة سميرة حبيب.

رقم الإيداع: 2025/10070

الترقيم الدولي: 978-633-99528-8-3

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف ولدار رونق للنشر والتوزيع ، ولا يحق لأى دار نشـــر طبع ونشر وتوزيع الكتاب أو ترجمته أو الإقتباس منه أو نشره على النت إلا بموافقة كتابية وموثقة من المؤلف أو دار رونق للنشر والتوزيع.

تنويه: للتأكد من صحة بعض المعلومات والأرقام الخاصة بالآثار اليمنية؛ تمت الاستعانة بويكيبيديا، ثم التأكد من صحتها.

الإهداء...

الى خاتمة الفضل النبيل والشفاعة يوم جمعتهما الليلة والى والدي الغالي رحمه الله..
الى سفينتي النجاة الغريق..
الى زوجي الغالية..
الى سفينتي الخاص والى سفينتي العزيز الراحل..
الى رفيقة الدرب..
الى شمعتاي والى إبناء أخي والى أحوالي..
الى الدبلوماسي صادق المسيراوي..
الى بيل غيتس وميشيل والى إبناء أختي..
الى بيل خاص من أجل فلسطين جميعا والى القابلة فلسطين، وبيل الشعور..
والى بيل إبناي..

مع تحياتي..

بسم الله الرحمن الرحيم

أحداث هذه الرواية من خيال المؤلف، وقد تكون شبيهة بأحداث عاشها سكان كوكب زحل.

تشابه الأماكن والأحداث مع كوكب آخر؛ كان من باب المصادفة لا أكثر.

الرواية:

صنعاء 1910م:

لا أعتقد بأن هنالك باب غير باب اليمن ليس له مفتاح.

فهو مدخل صنعاء الذي لا يُغلق أبدًا، ربما بسبب زوارها في كل وقت من جميع مدن، وقرى اليمن، بل ومن جميع أنحاء الدنيا.

نعم، في كل وقت من جميع أنحاء الدنيا، فصنعاء هي أم المدن، فهي أول مدينة شيدها الإنسان على هذه الأرض، ليعيش فيها، وليبني عليها أقدم حضارة إنسانية عرفتها

البشرية، ومنها انطلق ذلك الإنسان ليصنع مثيلاتها في أرجاء الدنيا.

في رحلة الشتاء تُشد الرِحال إليها، وإلى أخواتها من مدن اليمن المختلفة، ليتزود البشر منها، ولتحمل دوابهم ما تستطيع حمله من خيراتها، فاليمن مدفئة العالم، رغم برودة طقسها.

هكذا وصفها القرآن عندما أشار إليها برحلة الشتاء، وأشار إلى الشام برحلة الصيف.

تستقبل صنعاء صباحها بأذان الفجر الذي يُسمع من كل نواحيها، خطوات رجالها بأبنائهم تتجه نحو ذلك النداء، ليخرجوا من تلك المساجد بعد أداء الصلاة على أصوات عصافيرها التي تستقبلهم بتغريداتها، قبل أن تستقبلهم بيوتهم برائحة الصَبوح (طعام الإفطار)، والتي تجتمع عليه الأسرة، وتشاركهم أشعة الشمس التي تخترق قمريات تلك البيوت.

عند مدخل باب اليمن وقف شموئيل يتأمل الناس.

زائر بملامح أوروبية، لم يثير وجوده الريبة، فالسياح يقبلون إلى صنعاء، وإلى مدن اليمن الأخرى للتبضع كما ذكرنا، ولا

غرابة لو قال أحدهم بأن صنعاء هي مسقط رأسه، فاليمن موطن الإنسان الأول، عربي أو أعجمي، ولذلك هي أصل العالم، وليس العرب فحسب.

وقف شموئيل ينظر إلى مقاهي صنعاء، وإلى محلاتها المتناثرة في سوق باب اليمن.

أخذ كرسيًا، وجلس في مقهاية السيد حمود (المقهاية مكان بيع القهوة والشاي باللهجة اليمنية)، والتي كانت مباشرة على يمين باب اليمن، بعد دخولك من ناحيته، فهي ملتقى المسافرين الخارجين، والداخلين إلى صنعاء، وعندها يضعون الرسائل التي تصل لأهل صنعاء من خارجها.

ما أجمل الجلوس والاستماع إلى أصوات الباعة، وتحايا المتسوقين لبعضهم.

أصوات تشعرك بالحياة، وبالبساطة، والأُنس.

إفطار يمني كان شموئيل بحاجته، فوعثاء السفر بادية عليه، ولابد له من تناول شيء قبل خلوده للنوم في إحدى سماسر صنعاء، بعد رحلة كانت محفوفة بالمخاطر، رأى أن مقهاية السيد حمود هي المكان المناسب لذلك بدلًا من أن يطلب

إفطاره من السمسرة، حتى يرى الناس من حوله، ولعله يعثر على ضالته.

مُلَوح (خبز يمني)، وفول، مع شاي أحمر، ثم الاستمتاع بتناول القهوة اليمنية الفاخرة.

تلك القهوة التي كان حلم تناولها في بلدها الأم؛ أمنية الأكابر من بلاد الأفرنج.

ما أجمل الأفطار عند باب اليمن، وما أجمل الأطباق اليمنية، والتي تشبع روحك قبل بدنك بجمالها، والمحضرة من عمق البيئة اليمنية الأصيلة، وما أزكى تلك الرائحة المميزة للقهوة اليمنية التي غزت العالم، وأراحت أمزجتهم، في وقت أصر العالم فيه على تعكير أمزجة اليمنيين.

بعد أن تناول شموئيل إفطاره، واستمتع بمذاق القهوة، والنظر إلى رواد باب اليمن، توجه إلى سمسرة الحاج عثمان، بعد أن دله عليها السيد حمود.

سمسرة لا تبعد كثيرًا عن باب اليمن، تتميز بهدوئها، وتعود للحاج عثمان، والتي يديرها مع أسرته التي تسكن في الجزء الخلفي منها.

وصل شموئيل إلى السمسرة، وصعد إلى غرفته ليستريح قليلًا قبل أن يستكمل رحلته إلى هدفه.

قبل مجيء شموئيل إلى صنعاء:

القاهرة 1909م:

شوارع فسيحة، وبشر من كل صوب ولون.

كل شيء في القاهرة يُشعرك بأهميته.

يُشعرك بالحياة، وكأن الأرض لم توجد إلا من أجل أم الدنيا، وكأن الذي لم يزر مصر يتيم هجر والدته، ولن تقبله دور الرعاية لتفريطه بأمه.

الحياة في مصر جميلة، لكن صباحها أجمل بعربيات الفول المنتشرة في شوارعها، وبخفة دم أهلها، وروحهم الطيبة، وبنيلها الذي لاينفطم منه راضعه مهما ابتعد عنه.

سابقة زمانها، فكل شيء فيها يضاهي أعتى مدن العالم.

بلد لا تختلف مدنه عن المدن الأوروبية الحديثة، فلا روما أرقى من القاهرة بشوارعها ومبانيها، ومؤسساتها، ولا شواطئ ليفربول بأدفئ من شواطئ الإسكندرية، ولا ريف سويسرا بأجمل من أرياف الصعيد.

هي وجهة العرب لينالوا من علومها، حيث معاهدها، ومدارسها المتعددة، وجامعة الأزهر، وجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن).

هي وجهة عالمية بحضارتها العتيقة، وكفى.

في أحد مقاهي مصر الشهيرة المطلة على النيل؛ التقى شموئيل بإسحاق آرون، وهو يهودي مصري من مواليد القاهرة.

شموئيل: منذ زمن لم نلتقي يا إسحاق.

إسحاق: لقد غبتَ كثيرًا عنا يا شموئيل، منذ أن غادرت إلى لندن.

شموئيل: سمعت بالأخبار الجديدة؟

إسحاق: نعم، فلسطين رائعة، إنها وعد إبراهيم، اعتقد أنها ستكون وطنًا جميلًا لنا، رغم تحفظي بالسفر الآن، فقد عشقنا مصر، ولنا فيها مصدر رزق.

شموئيل: لا، لا.. أنت لن تغادر مصر، ولا حتى أفراد أسرتك يا إسحاق.

إسحاق: لم؟!

شموئيل: لدينا الكثير من الأعمال هنا، دورك مهم جدًا في مصر، والقيادات في الوكالة يعتمدون عليك كثيرًا، أمامنا الكثير من المهام حتى نعلن قيام دولة إسرائيل.

إسحاق: وأنا رهن إشارتكم.

شموئيل: سأذهب إلى اليمن مطلع العام، كما تعلم بأن الكثير من اليهود هناك، من المهم أن نجلبهم لوطننا الجديد، هاجرت أسرتان قبل عقود من اليمن إلى أرض الميعاد، لقد تأقلموا سريعًا، ونافسوا الفلسطينيين هناك على تحمل كل الظروف، ولذلك أنا بحاجة إلى من يساعدني في اليمن لجلب بقية الأسر.

إسحاق: أعرف صديقًا لي اسمه سليمان أبو ماضي، هو تاجر فضة معروف في صنعاء، وهو رجل حكيم، يثق به اليهود هناك كثيرًا، ويرجعون إليه في الكثير من أمورهم.

شموئيل: جيد، إن الكثير من اليهود هناك يعملون في الفضة، وكذلك في الزراعة، وتربية المواشي، سأذهب إلى اليمن كما أخبرتك، لابد أن أرتب مع سليمان أبو ماضي لعودة يهود اليمن إلى وطننا الجديد، وأنت أريد منك أن ترتب لموضوع هجرة اليهود إلى وطننا الجديد من مصر، ومن ترى أن مكوثه في

مصر سيفيدك فاحتفظ به، فلابد وأن تبقى هنا مجموعة جيدة حتى يكون لها تأثير داخل المجتمع المصري.

إسحاق: اتفقنا.

بعد شهر من لقاء شموئيل بإسحاق آرون توجه بحرًا نحو اليمن، ثم اتجه برًا نحو صنعاء.

صنعاء:

بعد أن أخذ شموئيل قسطًا من الراحة في سمسرة الحاج عثمان، أراد الخروج إلى باب اليمن مرة أخرى؛ للبحث عن دكان سليمان أبو ماضي.

عصر صنعاء لا يقل جمالًا عن صباحها؛ سوى أن العصافير تقل أصواتها قليلًا، فوقت نومها قد اقترب، لذلك هي تعزف تسابيح المساء، التي تشكر الله من خلالها أن كانت الأرض السعيدة هي مسقط رأسها، والذي لا يقل روعة عن عزف الصباح، وكأنه نشيدها الوطني لتلك الأرض التي شكرت الله عليها.

أعتقد بأن تلك العصافير قد رددت النشيد الوطني قبل أن يصدح به أبناؤه، وتعلن بأن نبض قلبها سيبقى يمنيًا.

عندما تتجول في شوارع صنعاء عصرًا تجد أطفالها في شوارعها يلعبون مع بعضهم.

أولاد، وفي ركن آخر فتيات، وأصواتهم يزيد المكان بهجة وسرورًا.

ونساء يخرجن من بيوتهن متغطيات بالحجاب الصنعاني، للاجتماع عند جارة أخرى، تفوح من منزلها رائحة القهوة، والكعك.

تجول شموئيل في شوارع صنعاء، وعند الغروب توجه نحو دكان أبو ماضي.

دكان يبدو بما يملكه من مقتنيات بأنه ليس محلًا لبيع الفضة فقط، فالكثير من المعالم الأثرية، والتراثية يضمها ذلك المحل.

رجل في الخمسين من عمره، ذو شارب، ولحية بيضاء، وظفيرتين من شعره تخرج من عمامته، يقف منتبهًا داخل دكانه، ينتظر زبونه القادم.

ما إن رأى شموئيل مقبلًا إلى دكانه حتى بادره بالخروج له: مرحبًا بك، لعلك سائح.

شموئيل: أهلًا سيد سليمان.

سليمان: هل تعرفني؟

شموئيل: سمعت عنك، وجئت لأتعرف عليك.

سليمان: سمعت عني! وجئت لتتعرف عليّ! إذًا أنت لست زبونًا **(قالها متضايقًا)**.

شموئيل: جئتك لأمر مهم، دلني عليك شخص من مصر، يدعى إسحاق آرون.

سليمان: إسحاق آرون، آه.. أنه صديق قديم، مرحبًا بك في منزلي لنتناول طعام العشاء، بعد أن أغلق دكاني.

دعوة سليمان أبو ماضي لشموئيل إلى منزله لم تكن بالمستغربة، فاليمني كريم بطبعه، وسليمان غلبت ميزاته كيمني على عادات اليهود في أي مكان.

كان منزلًا جميلًا في أطراف صنعاء.

لم يختلف منزله كثيرًا عن البيوت اليمنية الأخرى، والتي تتميز بعمارتها التي تحمل هويتها المميزة في مظهرها الخارجي، وتقسيمها الداخلي، التي لا تنفرد بها عن غيرها، ففن العمارة في اليمن استنسخه الكثيرون خارجها.

يتميز البيت اليمني ببنائه المكون من الحجارة في المناطق الجبلية، ومن الطوب في المناطق الساحلية منها، واليمنيون هم أقدم من استخدم أنماط البناء عبر التاريخ، وبالتحديد بعد العصر الحجري، باستخدامهم الطين النيء، والزابور في بناء البيوت الشعبية خارج الكهوف، ويظهر جمال بناياتهم من

خلال استخدامهم لخط المسند في الزخرفة الخارجية، أو من خلال قمرياتها المميزة بألوان زجاجه المتعددة التي تعلوا الشبابيك، لتتسلل أشعة الشمس من خلالها، فتنير البيوت بألوانها من الداخل في إبداع هندسي فريد.

ديوان كبير يستقبل فيه اليمنيون ضيوفهم، كان هو المكان الذي استقبل فيه سليمان ضيفه شموئيل.

نتناول العشاء ثم نتحدث.

قالها سليمان لضيفه وهو يشير إلى أبنائه بوضع الطعام أمام الضيف.

سلته (لحم أو دجاج مقطع بطريقة معينة، يضاف له الخضار التي يتم تسبيكها بإضافة البهارات، ثم يضاف من فوقها الحُلبة)، والكبانة (نوع من الخبز، يصنع من دقيق الذرة، وفي أيام السبت يستخدم يهود اليمن القمح بدلًا من الذرة)، وسحاوق (سلطة مكونة من الطماطم، والجبن، والفلفل الأخضر)، وبنت الصحن (قرص من عجين القمح، يضاف له السكر، ويرش عليه الحبة السوداء، وبعد خبزه يصب عليه العسل)، قدمها لضيفه، وتناول معه الطعام هو، وولديه، ثم جاء له بالقات كنوع من إكرام الضيف عند اليمنيين.

ما هذا؟

قالها شموئيل وهو يشير إلى نبتة القات.

سليمان: هذه نبتة القات، نتناولها هنا في اليمن بعد تناولنا للطعام، أو متى ما رغبنا بذلك.

شموئيل: لا أحب تناولها، ولم أعرفها من قبل، جئتك اليوم من أجل أمر مهم، فاتركها الآن.

سليمان: والأمر المهم حتى نفهمه جيدًا بحاجة إلى القات لنكون أكثر تركيزًا **(قالها ضاحكًا)**.

شموئيل: سمعت عنك كثيرًا، وعن حكمتك، وعن حب اليهود لك هنا، واستشارتهم لك في الكثير من أمورهم.

سليمان: أشكر لك كلماتك.

شموئيل: كنت في لندن منذ فترة، واجتمعنا مع عدة قيادات، ثم ذهبت إلى باريس، ثم القدس، ومصر، والآن جئت إليك.

سليمان: خيرًا.

شموئيل: جئت لأخبرك بأننا نتجهز لأن نجتمع جميعًا في أرض الميعاد، وتقوم دولتنا الكبرى.

سليمان: هل آن الآوان؟

شموئيل: نعم، الهجرة يا سليمان، الهجرة، إنها وعد الرب لأنبيائنا.

سليمان: صدقت.

ثم فتح سليمان التوراة، وقرأ من سورة التكوين: (وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. 2 فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً. 3 وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ)، **ثم قال:** فلسطين؟

شموئيل: بل إسرائيل، إنها وعد الله لنا، ولن يكون لأحد حق في شبر منها، لا بد أن نفتح باب الهجرة؛ لنبني وطنًا من النهر إلى النهر، أريد منك أن تشجع يهود اليمن على الهجرة، سنرتب كل شيء، خلال سنوات لا نريد لأي يهودي أن يبقى هنا سوى من نرسله لتنفيذ بعض المهام، تولى أنت المهمة، رتب خروجهم، إنها مهمتك يا سليمان.

سليمان: هل تظن أنهم سيوافقون بهذه السهولة على مغادرة اليمن التي أحبوها؟

شموئيل: بالتأكيد، إن مستقبلهم هنا يمضي نحو الأسوء، البلاد هنا تتجه نحو الضعف، والحروب ستصل إلى هنا لا محالة، والتي ستتسبب بالكثير من الأضرار والمجاعات، إن اليهود أبناؤنا ولابد لنا من أن نحميهم، هم الأحق بعيشة أفضل، والتي لن يجدوها إلا إذا هاجروا إلى هناك، ثم لا تنسى عقيدتنا التي تؤمن بأرض الميعاد، إعمل من خلال إحيائها.

في هذه الليلة رتب شموئيل كل شيء مع سليمان.

كان سليمان متحمسًا للعمل حتى يتحقق الموعود.

الإله، الأرض، الشعب.

لقد آن الأوان.

رغم كل شيء كان هنالك ما يشغل بال سليمان.

كان يخرج صباحًا قبل ذهابه إلى دكانه.

كان ينظر في وجوه أصدقائه اليهود.

كان يتأمل غدوهم، ورواحهم.

جلساتهم.

تسوقهم.

كان يتأمل كل شيء، ويفكر.

كيف سيتركون أرضهم؟

كيف سيتركون اليمن التي عشقوها، ونشأوا فيها؟

هل بمقدورهم ترك كل شيء؟

ترك بيوتهم، ومزارعهم؟

ترك الذكريات؟

لكنهم موعودون بما هو أفضل.

بموعود الله.

كان يتأمل كل ذلك، ويفكر كيف سيستطيع إقناعهم.

إنها المهمة الجميلة بقدسيتها، والصعبة بعاطفتهم نحو كل شيء هنا.

مضت الأيام، وكانت الحرب العالمية الأولى.

تلك الحرب التي كان لها الأثر الكبير على الشرق الأوسط، بسبب تفكك الدولة العثمانية، تلك القوة الإسلامية التي سببت رعبًا لأوروبا، وللعالم.

لم تكن نهاية تلك الحرب مبشرة للناس هنا في اليمن.

لقد حملت لهم الأيام شقاءً كان ينتظرهم، فبعد تفكك الدولة العثمانية، حضرت الإمامة في اليمن، وتحديدًا في العام 1918م.

إنه عصر جديد عانى فيه اليمنيون كثيرًا، بسبب السياسات الجديدة التي فُرضت عليهم.

لم تكن هذه السياسات فقط تتمثل في تلك الجبايات التي تم فرضها على الشعب بمختلف أطيافه، والتي أدت إلى ضعف الحالة الاقتصادية لهم، بل كذلك في شتى مجالات الحياة، من إهمال للتعليم، والتطوير، وبل وتعدت إلى سوء الإدارة السياسية للكثير من الملفات الخارجية للبلاد.

شعرت المملكة المتوكلية في اليمن، بخطر الوجود الانجليزي في جنوب البلاد، فحاولت الحد منه قدر الإمكان.

وفي عام 1926م تعرضت المدن الشمالية في اليمن إلى عدة ضربات، شنتها تلك القوات البريطانية المتواجدة في جنوب اليمن عليها، وذلك بعد مناوشات بينها وبين المملكة المتوكلية في شمال اليمن.

وكانت هذه المناوشات بعد أن وقع الإمام معاهدتي صداقة مع إيطاليا، والاتحاد السوفيتي، والتي أقلقت كثيرًا البريطانيين.

ازدادت المناوشات، وتوجهت قوات الإمام نحو الضالع، مما أدى إلى تصادمها مع القوات البريطانية، وكان هدف الإمام من ذلك هو الضغط على البريطانيين من أجل استعادة تهامة، بعد أن استولت عليها القوات البريطانية وسلمتها للأدارسة.

تركز قصف طائرات القوات البريطانية على تعز وإب، وانتهت هذه الحرب باستسلام الإمام، وتوقيعه لمعاهدة مع البريطانيين عام 1934م.

انغلقت اليمن على نفسها، ودخلت إلى نفق مظلم، فقد استغل الأمام هذه الفرصة، وغيرها، إلى عزل البلاد، وتجهيل الشعب، ومنع سفر اليمنيين إلى خارج البلاد تحت أي ظرف، وكذلك منع دخول الأجانب إلى البلاد إلا بإذن مسبق منه، ومنع تواجد البعثات الدبلوماسية لأي دولة.

أما جنوب اليمن فاستغلت القوات البريطانية احتلالها له، فسعت إلى القضاء على تقاليد البلاد، ودمج ثقافات أخرى، واستغلال الشعب لتنفيذ مصالحها، بعيدًا عن تطويره.

نعم، لقد كان هنالك تطورًا مدنيًا في عدن، حتى أنها كانت أول مدينة في كل الجزيرة العربية تصلها الكهرباء، لكنه لم يكن لأجل اليمنيين، بل لأجل مصالحهم.

كانوا يريدونها مستعمرة خاصة لهم، ولم يسعوا للإنسان.

أرادوا نزع ثوب يمنيتها، وإن أشعروا اليمنيين هناك بأنها من أجلهم.

لقد سعت الإمامية إلى تجهيل الشعب، وسعى البريطانيون إلى ترفيهه، فقضوا بذلك على كل سبل تطور ذلك الشعب وتقدمه.

إن آثار كل ذلك مازالت باقية إلى اليوم رغم كل التغيرات التي حدثت، لكنها لم تكن كافية، ولن تكون، فالسعي للتغيير ليس كافيًا لتحقيقه، بل لابد من صدق النية، والبذل بقوة.

إن سلاح التجهيل، وسلاح الإشغال بالترفيه أكثرًا فتكًا من تلك النيران التي تجلبها القنابل.

إن الجهل يفقد الوعي لدى الإنسان، والترفيه الغير منضبط يلهييه عن اهتماماته، وعندما يغيب الوعي، وتُجلب المُلهيات، فإن الشعب ينشغل بشهواته، وتضيع اهتماماته، ومطالباته بحقوقه، ويُصبح أمر البلاد بيد شخص واحد، أو فئة معينة، أشغلت شعبها بشهواته، فتحكمت بكل شيء، وقادت البلاد دون حساب إلى حيث تكون مصالحها، لا مصلحة الدولة.

ساعدت هذه الظروف سليمان أبو ماضي إلى مناقشة أمر هجرة اليهود بشكل أوسع، فقد كانت هذه الأحداث مقلقة لليهود بشكل مستمر، مما جعل بعض الأسر التي لم تفكر بالهجرة، إلى التفكير مرة أخرى في ذلك، خاصة مع كل تلك الإغراءات التي قُدمت لهم.

ثم كانت الحرب العالمية الثانية، والتي خشيت الكثير من الأسر أثناء نشوبها من ضياع فرصة الهجرة، لكن مع نهايتها في عام 1945م أصبحت الهجرة إلى أرض الميعاد ممكنة، بل ومطلوبة، وأصبحت حديث يهود اليمن في مجالسهم في كل مكان، خاصة بعد عدة هجرات سابقة ليهود يمنيين.

منهم من أيد ذلك، خاصة وأن حياة أفضل تنتظرهم، في ظل الحياة القاسية التي أصبحوا يعيشونها في اليمن منذ 1918م مع بدء عهد الإمامة فيها، وكذلك مع ذلك الغموض الذي بدأ يسود الشرق الوسط.

ثم أن أرض الميعاد وإقامة الوطن في تلك الأرض يحظى باهتمام الوكالة، وبدعم عالمي كما أخبرهم سليمان أبوماضي، ولذلك فالمستقبل هناك أفضل لهم، ولأبنائهم.

حرص سليمان أبو ماضي على مواصلة الالتقاء بالكثير من العائلات اليهودية ليحدثهم عن الهجرة، وعن أرض الميعاد.

خرج للكثير من المناطق.

هم يثقون به، وهو يتأمل فيهم.

عائلتان من صنعاء، وأخرى من عمران، ثم توالت الهجرات بين فترة وأخرى.

لم تكن عائلة يوسف يارون بأقل من غيرها، فهي تحلم بعيشة أفضل، رغم أن يوسف يعمل في صناعة التحف منذ فترة طويلة، ويبيعها على السياح الأجانب الذين كانوا يزورون اليمن، أو إلى تجار البن الذي يفدون إلى المخا وينقلونها إلى العالم، فهو لديه دكان آخر هناك.

تقيم عائلة يوسف في صنعاء، وهو متزوج من امرأة التقى بأهلها في تعز، عند زيارته لها من أجل الحصول على بعض التحف النادرة، فوالدها تاجر تحف معروف في تعز، هو موسى بن يامين.

التقى سليمان أبو ماضي قبل وفاته بيوسف يارون، وتحدثا عن أمور كثيرة، وعن أوضاع اليهود هنا، وعن الجزية التي فُرضت عليهم، وعن الذين هاجروا لأرض الميعاد، وطلب سليمان أبو ماضي من يوسف أن يهاجر إلى فلسطين على رأس مجموعة كبيرة من الأسر اليهودية، في أكبر عملية هجرة من اليمن إلى فلسطين منذ بداية عمليات الهجرة.

كم هو مؤلم بالنسبة لأسرة يوسف أن تهاجر وتترك أرضها التي نشأت عليها.

القرية، والمدينة، والشوارع.

الناس، والسماء، وكل شيء.

كان قرارًا صعبًا على تلك الأسرة.

حاولت الأسرة أن تؤجل قرارها، لكن الوقت يمضي، وكثير من الأسر اليهودية بدأت بالهجرة.

استأذنت سارة زوجة يوسف بأن تذهب إلى تعز، وتقضي فيها أيامًا قبل سفرها.

صحيح أن بعضًا من أهلها كذلك سيغادرون معها، لكنها أرادت توديع بقية أفراد أهلها، والمكان الذي نشأت فيه، وأخذت معها كذلك أبناءها هارون، وموسى، وابنتها أديل، وطفلها الرضيع شعيب.

قضت في تعز أيامها الأخيرة هي وأبنائها، وعرفتهم على كل ذكرياتها هناك.

كانت تقص عليهم ذكرياتها، ودموعها تسبق كلماتها.

وداع اللاعودة، وهذا ما أبكاها، وأبكى كل الأسر كذلك.

مضت الأيام والأسر تستعد إلى الهجرة، وبدء حياة جديدة، ليتحقق أملهم بحياة أفضل.

أمل زاد تمسكهم به بعد إعلان قيام دولة إسرائيل عام 1948م، عند نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين، والذي نص على أحقية اليهود تاريخيًا في أرض فلسطين، وكذلك بعد أن صادق الكنيست على قانون العودة في الخامس من يوليو 1950، والذي مكن كل يهودي حول العالم من أن يتلقى الجنسية الإسرائيلية في اللحظة التي يهاجر فيها إلى إسرائيل، ثم قانون الجنسية عام 1952، والخاص بالتشريعات الخاصة بمسائل الهجرة، والذي ينص على حق اليهود في القدوم إلى إسرائيل، وعلى التكفل بتسهيل هجرتهم، والذي صدر بعد أن هاجرت أسرة يارون بسنتين.

هذا الأمل الذي لم ينظر إلى أن هنالك أناس في تلك الأرض.

لم ينظر حتى إلى كيفية التعايش معهم، ومشاركتهم الحياة، والذين قد لا يتنازلون عن تاريخهم، وذكرياتهم على تلك الأرض، فكل المعطيات في نظرهم تشير إلى قيام عهد جديد لهم يرعاه العالم.

مضت آخر أيامهم في اليمن.

أيام قضتها الأسر ما بين شراء حاجيات سيفتقدون وجودها في حياتهم الجديدة هناك، وبين زيارات لأماكن قضوا فيها جل أيامهم، فلعلهم يأخذون معهم بعض الذكريات، بعد أن أجبرهم الإمام على ترك ممتلكاتهم هنا قبل خروجهم.

مع مطلع يونيو 1949م، بدأت الكثير من الأسر اليهودية بالتوافد إلى عدن من أجل اللحاق بركب المهاجرين.

نعم، عدن تودعهم، لكنها كانت هي أيضًا تتألم.

لقد كانت عدن حينها مازالت تحت الاحتلال البريطاني، وهذا ما يفسر اختيارها مكانًا لانطلاق يهود اليمن لأرضهم الجديدة.

كانت الطائرات البريطانية والأمريكية تحملهم إلى فلسطين جماعات، طائرة تلو أخرى، فيما كانت تعرف بعملية (بساط الريح).

وصلت أسرة يارون إلى عدن أواخر يناير 1950م، وانتظرت دورها للرحيل.

كان الباعة اليمنيون يمرون على تلك الأسر ليبيعونهم البخور العدني.

ما أجمل رائحة ذلك البخور الذي يتميز عن غيره، إنها آخر عهدهم بوطنهم الأم.

أخذت الأسر بشراء كميات من ذلك البخور، رغم أنهم قد جلبوا منه في حقائبهم، لكنهم يشترونه مرة أخرى، وكأنهم يعزون بذلك أنفسهم وهم يغادرون.

ركبت الأسرة الطائرة متجهة نحو الشمال.

كان الحزن بفراق وطنهم يفوق فرحهم بوطنهم الجديد، وهكذا هو الإنسان، عند الفراق يغلب حنينه أمله.

حلقت بهم الطائرات بعيدًا.

ارتفعت بهم في السماء.

لأول مرة يركبون الطائرة، ولأول مرة يشعرون بغصة في حلوقهم.

تلك الغصة التي حرص كل شيء في اليمن؛ من جبالها، وسهولها، وبحورها على ألا يشعروهم بها، رغم قسوة الحياة أحيانًا.

تلك القسوة التي اقتسموها مع وطنهم.

كانوا صامتين، كجثث عادت من الحرب أشلاءً.

صامتون وينظرون من النوافذ؛ ووطنهم يبتعد عنهم، أحسوا وكأنه تركهم.

نعم ، تركهم يغادرون، فما هم إلا ضعفاء بحاجة إلى قوي، ولو كان وطنهم قويًا لما غادروه.

هكذا شعروا، وحينها تمنوا لو تسقط بهم الطائرة ليسقطوا هم في حضن وطنهم من جديد؛ قبل أن تبتعد بهم أكثر.

حطت الطائرات في يافا.

الحياة تبدو متغيرة نوعًا ما.

حياة جديدة توشك أن تبدأ، ليست لتلك الأسر فقط؛ بل كذلك لأصحاب القرار الجديد فيها، وإن كانوا قد سبقوا تلك الأسر بعدة سنوات، لكن كل شيء هنا يوحي بذلك.

جاءت السيارات، وبدأت في نقل الأسر من المطار إلى المخيمات، نعم هي ليست بيوت كما وعدوهم، لكنها البداية فقط، كما قالوا لهم عند وصولهم.

أخذ الموظفون في تسجيل بيانات الأسر، وتوزيعهم على المخيمات.

لكل أسرة خيمة.

جاءوا لهم بالطعام والشراب، وكل الخدمات تم توفيرها لهم على التو، بل قاموا كذلك بفحصهم، والاطمئنان على صحتهم.

إنها مساكن مؤقتة في وطن وعدهم بالأفضل.

رغم كل ما تم تقديمه لهم من خدمات؛ إلا أنهم مازالوا يعانون من بعدهم عن وطنهم الأم، مازال فراق اليمن واضحة آثاره عليهم.

مازالت الذكريات تسرح بفكرهم، لكنه الأمل الذي علقوا عليه الآمال، ووعد الرب كما هم يعتقدون.

مضى شهر وشهر، وهم يمارسون حياتهم اليومية في تلك المخيمات، يتسامرون فيما بينهم، ويتبادلون ذكرياتهم، متأملين بمستقبل جميل.

في مساء أحد الأيام، وقبل خلود الأسر للنوم جاءت مندوبة المكتب.

دخلت عليهم ساحة المخيم، وطلبت حضورهم.

امرآة بلباس أبيض يغطيها.

في منتهى الرقة والذوق.

جمال صوتها يبعث السكينة على مستمعيها.

طلبت الأطفال من أسرهم بحجة تأمين الرعاية الصحية الخاصة بهم.

هم أطفال، وبحاجة إلى رعاية خاصة واهتمام، هكذا هي التعليمات، والتي هي بالتأكيد من أجل صحة هؤلاء الأطفال وصحتكم.

استقبلت الأسر طلب المندوبة بالقبول، فكل شيء هنا يبشر بالأفضل لهم.

تم تسليم الأطفال للمندوبة، ومن معها من مساعِدات، وتم نقل الأطفال إلى منازل أفضل، بيوت من طوب بدل المخيمات، يسكن معهم مجموعة من الأخصائيين لرعايتهم والاهتمام بهم.

كانت الأسر سعيدة بما يُقدم لأطفالهم.

كانت الأمهات تذهب كل يوم لإرضاع الصغار، ومشاهدتهم والأطمئنان عليهم.

شيمون..

اسم يعرفه الجميع هنا في المخيم، فهو المسؤول الأول عن تقديم الخدمات للأسر، وعلى تقديم الرعاية لهم، وتلمس ما يحتاجون إليه، وتوفيره بسرعة لهم.

شخصية يحبها الجميع، ابتسامته لا تفارقه في كل وقت، يجلس مع الرجال، فيكتشف مهاراتهم، ويوجههم، بل كان يبحث لبعضهم عن فرص عمل في المزارع والمحلات الصناعية في يافا، أوالمدن المجاورة، لقد كان كل شيء بالنسبة لهم.

الحياة في يافا جميلة جدًا، فالجو جميل، ومزارع البرتقال متناثرة هنا وهناك.

مدينة تطل على البحر الأبيض المتوسط، لذا نجد الكثير من ساكنيها ممن يعملون بالصيد.

تعتبر يافا من أقدم مدن العالم، تبعد عن القدس بحوالي 55 كيلو مترًا فقط.

ما أجمل الحياة في يافا..

قالها يوسف لزوجته سارة، وهما يستظلان تحت إحدى شجراتها، ويتناولان البرتقال.

لقد تذكر يوسف مزرعة أهله في ريف صنعاء، وكيف أنه كان في صغره يتسلق أشجارها ليأكل من ثمارها، وعندما يعجز عن تسلق الأشجار؛ كيف أنه كان يرمي وأصدقائه تلك الغصون بالحجارة لتتساقط الفواكه، فيتسابقون لالتقاطها بكل فرح.

يوسف: نعم، اعتقد أن حياتنا هنا ستكون جميلة، حتى أهل يافا طيبون، عرفت بعض الفلسطينيين هنا عند ذهابي للسوق، لقد

كانوا كرماء معي جدًا، رغم تحفظهم، خاصة عندما عرفوا بأنني عربي من اليمن.

سارة: نعم، هم كذلك.

يوسف: كيف حال ابننا شعيب؟

سارة: بأفضل حال، زرته البارحة وجلست معه قليلًا.

شعيب طفل لم يتجاوز عمره السنة والنصف، سلمه والداه للرعاية كما طُلب منهما.

كانت أمه ساره تزوره كل يوم لترضعه.

كانت سعيدة وهي ترى الاهتمام الكبير من قبل الأخصائيين بابنها، وبأبناء كل المهاجرين.

في صباح أحد الأيام ذهبت سارة مع بقية النساء؛ للقاء أطفالهن، كما هو معتاد.

اعتذرت المشرفات لهن عن لقاء أبنائهن بحجة إصابتهم بالحمى، وأنهم ذهبوا بهم إلى مستشفى أكبر يبعد كثيرًا عن دار الرعاية.

تعالوا بعد أسبوع لتروا الأبناء.

لم يعجب الأمهات رد دار الرعاية.

كيف لأبناء أن يمرضن جميعًا في يوم واحد؟

هل هي الحمى؟

لماذا تم نقلهم لمكان آخر دون إخبارنا؟

اعترضت الأمهات، وحاولن اللقاء بشيمون، والذي حاول تطمينهن: كل ذلك كان من أجل الاطمئنان على جميع الأطفال، المريض منهم، وغير المريض، فتم نقلهم جميعًا حتى يتم التأكد بأن ليس هنالك عدوى قد تنتقل لبقية الأطفال، وأن ما حدث هو طارئ بسبب الكثير من العوامل والمتغيرات البيئية لهم، وبأن التصرف السريع هو لاحتواء كل تلك المتغيرات.

سكت الأهالي، رغم أنهم لم يقتنعوا في داخلهم، لكنهم رأوا بأن أصحاب القرار هنا هم أعلم بما هو أنفع، ووجدوا كيف أن المسؤولين هنا كانوا يبذلون كل جهد لخدمتهم ورعايتهم، وكيف أنهم تكفلوا بجميع تكاليف هجرتهم وإقامتهم، ولذلك لن يفعلوا ما يضر بهم.

لم يفطن الأهالي بأن هناك خطة لإبعاد أطفال اليهود اليمنيين عن ذويهم، لكن شيمون كان يعلم جيدًا بأن ابتعاد الأطفال دفعة واحدة عن أهاليهم سيضعه في موقف حرج أمامهم، وسيحرك الكثير من الأسئلة من قبل تلك الأسر، لذلك كانت تلك إجابات تم إعدادها مسبقًا لكل الأسئلة التي يمكن أن يطرحها الآباء.

إنها خطة تم رسمها والإعداد لها من خلال اجتماعات لمندوب الوكالة مع شيمون، وبعض المسؤولين، فكل شيء هنا تم الإعداد له بإتقان.

إن صناعة وطن جديد ليس بالأمر السهل، والتعايش مع السكان الأصليين في فلسطين ليس في الحسبان أبدًا، هم خصوم، والخصم لن يشاركك الوطنية، لذلك كان لابد من أن نقضي أولًا على السكان الأصليين لفلسطين تدريجيًا على مر السنوات، من خلال تهجيرهم، أو دمجهم بيهود العرب، أو تجنيس بعضًا

منهم، إلى أن يُقضي على بقايا ما يحملون من إرث حضاري، وينغمسوا في أفكارنا، أو تصنيفهم كمواطني درجة ثانية، هم ومن استخدمناهم من اليهود الشرقيين، والذين سندمج أطفالهم في برامج خاصة، بعد أن نعلن لذوييهم وفاتهم، حتى تبقى الأرض للصفوة دون غيرهم.

نعم، لبني إسرائيل ونسله.

لن يتحقق الوعد إلا باجتماع نسل بني اسرائيل هنا.

كررها شموئيل مرارًا لشيمون ورفاقه حتى يدركوا الأمور جيدًا، وحتى يفهموا لماذا يتصرفون مع أبناء يهود اليمن، وبعض اليهود المهاجرين ذلك التصرف.

إن يهود اليمن ليسوا من نسل بني اسرائيل، هم حميريون، سبئيون، يعودون للعرب، لكننا بحاجة لهم الآن في هذه المرحلة، فهم من أقرب اليهود للفلسطينيين هنا في اللغة والعادات.

إن أبناء مملكة حمير، أو سبأ كما كانت توصف قبل ذلك هم أعداؤنا اللدودين، الذين سادوا العالم من قبل، وتمكنوا منا، لذلك

لابد لنا من أن نقضي على أثرهم أولًا، وقبل كل شيء، لو أردنا السيادة.

إن النبي سليمان قَبِلهم لأنهم سادة العالم في ذلك العصر، وملوك من ملوك الدنيا، لكنهم لم يكونوا متعصبون لبني اسرائيل، لذلك منهم من آمن بمحمد، لأنهم رأوا من وجهة نظرهم أنه يوافق موسى وسليمان، وهذا هراء.

أبدًا لن يكونوا مثلنا نحن، أو ممن سكن مناطق أخرى واندمج معنا، فنحن من سيحمي مُلك بني اسرائيل، نحن اليهود الأنقياء، لا بد أن تفهموا ذلك جيدًا لتعرفوا حقيقة ما يجري.

إننا أمام مهام جسيمة تحتاج إلى إخلاصكم.

إن المرحلة الحالية تتطلب أن نُشعر الجميع بأنهم جزء من البناء، لكنهم في المستقبل لن يعيشوا في قمة ذلك البناء، إلا إذا تغيرت جيناتهم، أو سيكونون خدام لنا، نستخدمهم لبقاء دولتنا.

حفظ شيمون ورفاقه الدرس، وعملوا بإخلاص، هكذا كان الحال، وهكذا مضى كل شيء.

اقترح شيمون على بعض الأسر بمغادرة المخيم، والاندماج مع السكان، ووعدهم بالدعم المادي لافتتاح مشاريعهم الجديدة، مزرعة، أو محل للصناعات اليدوية، أو أي نشاط يرونه.

تحمست الأسر للفكرة، لكن أطفالهم كانوا المشكلة، فقد أشار عليهم شيمون بترك أطفالهم هنا، لأنه سيتم تسجيلهم في مدارس خاصة يتم إعدادهم فيها الإعداد الجيد، على أن يزوروا أسرهم مرة كل شهر.

لم تتحمس الكثير من الأسر إلى الفكرة أبدًا، ولذلك فضلوا البقاء في المخيم.

قليل من الأسر من غادرت المخيم، ومنهم أسرة يوسف يارون، خاصة بعد أن أخبروهم بموت شعيب.

نعم، لقد أخبروهم بموته.

لقد توفي شعيب مع مجموعة من الأطفال نتيجة الحمى، فقد كانت معدية لدرجة أنهم لم يسلموا الأطفال إلى ذويهم، بل اكتفوا بدفنهم جميعًا دفعةً واحدة، وإصدار شهادات وفاة، تم تسليمها للأهالي حينها.

تألمت أسرة يوسف لفقد شعيب، واستسلمت لقدرها.

لقد كانت الصدمة الأولى لهم، ولكافة الأسر التي تلقت خبر موت أطفالها هنا في الغربة.

نعم، غربة، رغم أنهم حضروا إلى هنا من أجل وطن سيكون لهم.

ووعود بحياة أفضل.

لكن الأمل مازال مستمرًا بأن يعود لهم شعور الوطنية الذي فقدوه يوم أن غادروا اليمن التي عاشوا فيها ماضيهم بكل ما فيه من مشاعر الأمن والولاء.

أحيانًا قد يأتي للإنسان شعور بتأنيب ضمير.

بملامة النفس على قرار سابق تم اتخاذه.

مالذي جاء بنا إلى هنا؟

وتبدأ الأسئلة، وقد تأتي الملامات من أطراف أخرى شاركوك الحلم، خاصة عند حالات الفقد.

أحداث مؤلمة تقودنا لمراجعة لحسابات، لا يوقفها إلا نداءات داخلية بأن نتمسك بالأمل الذي بذلنا كل شيء من أجل تحقيقه.

لعل الغد أجمل.

فلنواصل رغم كل شيء، ولنتمسك بما جئنا من أجل تحقيقه.

هكذا هي الحياة.

غادرت أسرة يوسف إلى القدس تحديدًا.

لم تكن فكرة يوسف، بل كان رأي شيمون الذي أمره بذلك شموئيل.

من المهم أن تذهب الكثير من الأسر إلى القدس، الجزء الغربي منها كبداية على الأقل، فمن المهم تهويدها، حتى نلغي فكرة القدس عاصمة فلسطين، إننا لو سيطرنا على القدس سيكون موقفنا الأقوى في المنطقة لأهميتها الدينية.

سيطرتنا على القدس ستعطي لنا بعدًا دينيًا، ومكانة، بسبب المقدسات التي تضمها، وإن استخدام الدين كواجهة سياسية يوفر علينا الكثير من العمل، ومن الخطط بالتأكيد، ومن الغطاء لكل ما سنقوم به.

أعرف أن ذلك لن يكون بالأمر السهل، لذلك لنركز على غربها كبداية، وليقبلوا بالقدس الشرقية، قبل أن نسيطر على كل شبر فيها، إننا يا شيمون لنا أهداف أخرى من خروج يهود اليمن من المخيم وانتشارهم في بقية المدن، إننا نريد أن ننسيهم موت أبنائهم، لذلك هم بحاجة إلى أن ينشغلوا بهذه الحياة، وبالعمل، وبالشعور بالانتماء.

إننا نخشى أن يكتشفوا حقيقة وجود أبنائهم على قيد الحياة، وأننا نقلناهم إلى مكان آخر، عند أسر أخرى، حتى يتم إعدادهم لخدمة مشروعنا الكبير بعيدًا عن جذور آبائهم.

ثم إن اليهود العرب هم الأقرب للاندماج بسرعة مع الفلسطينيين الذين سنستغل منهم من نمنحه امتيازات ليقبل بالانخراط لتحقيق أهدافنا.

ذلك ما قاله شموئيل إلى شيمون عند اجتماعه به، وهم يتناقشون في أمر توزيع يهود اليمن الراغبين بترك المخيم للعيش في بقية المدن.

انتقلت أسرة يوسف إلى القدس.

تلك المدينة التي يتجاوز عمرها ستة آلاف سنة، والتي سكنتها قبيلة البوسيين، وهم أحد البطون الكنعانية العربية.

مدينة جميلة بجمال ساكنيها.

بمسجدها العتيق.

بنسيم أزهارها.

بأشجار الزيتون.

بكل تفاصيلها.

حركة غير عادية، ليست ككل المدن، ففيها المسجد الأقصى الذي يسير إليه الكثير من الناس هنا، للصلاة فيه خمس مرات كل يوم.

جماعات وأفراد، تتقدمها أفئدتهم، فهي أول الواصلين إليه قبل أجسادهم.

روحانية ببركة ذكرها القرآن لما حول مسجده.

في أسواقها تجذبك رائحة الفلافل، وما أبدعته اليد الفلسطينية من تحف يدوية.

صوت الباعة، وتحايا المتسوقين لبعضهم، ونساء بحجابهن الكامل يقلبن قطع قماش، أو في دكاكين البهارات.

في أحد أركان سوق شعبي بالقرب من المسجد الأقصى اختار يوسف مقرًا لدكانه.

دكان لبيع الفضيات، تلك المهنة التي كان يعمل بها عندما كان في اليمن.

وبالقرب من ذلك الدكان قام بشراء بيتًا ليكون سكنًا له ولإبنائه الذين أدخلهم في مدرسة خاصة باليهود هناك.

بيت تحيط به، وبالمنازل المجاورة له بعض أشجار الزيتون.

تلك الشجرة المباركة في ذلك المكان المبارك، الذي أصبحت فيه تلك الشجرة رمزًا لنضال أبناء تلك الأرض.

عندما تدخل إلى بيت أسرة يوسف في القدس تشعر وكأنك في بيت من بيوت اليمن.

كل زاوية من زواياه تحمل ذكريات مستوحاه من بيتهم هناك.

في إحدى غرف الدار ترى المجلس الأرضي، الذي يُشعرك وأنت مستمتع بالجلوس فيه وكأنك في ديوان تطل نافذته على أحد أحياء صنعاء.

ترى الكوز على طاولة جانبية، وهو إناء يوضع بداخله الماء لتبريده، فتَصُبُ منه الماء لتتذكر تلك الأيام الخوالي التي تدخل فيها منزلك بعد جولة بين أسواق مأرب، أو صعدة.

وفي مطبخ سارة ترى المدرة، وهو إناء حجري يصنعون فيها ألذ الأكلات الشعبية، جلبته معها من منزل أهلها في تعز، حتى لا تفقد طعم أطباقها التي كانت تعدها.

ولو خرجت إلى ساحة البيت الخارجية ستجد القعادة، وهي كراسي عريضة، مصنوعة من الحبال، يجلسون عليها

مستمتعين بالأجواء الجميلة، ليتذكروا جمال مزارعهم، أو تلك الأجواء التي كان يتسامر فيها أهل الحديدة، وعدن على الشواطئ مستمتعين بنسيم البحر.

وبين كل ذلك، حرص يوسف على إضافة القمريات على جدران منزله، من خلال عامل بناء جلبه، وشرح له طريقة تشكيلها، وتجميلها، لدخول أشعة الشمس من خلالها، كتلك التي كانت في منازلهم هناك.

إنه وبرغم جمال بيوت الشام هنا، والتي تتميز بفنائها الجميل، التي تحيط به المزروعات، وبخرير ماء نافورته التي تتوسط ذلك الفناء، لكنهم أرادوا التمسك بذكريات عاشوا تفاصيلها، وروعتها، فتمسكوا بها، علها تخفف عنهم ألم الفراق.

في إحدى الليالي السبتمبرية من عام 1962م، ومع أجواء الشتاء الباردة، دخل يوسف على أسرته بالكعك والحلويات، وكان سعيدًا جدًا.

استقبلته زوجته متعجبة، وسعيدة لسعادته:

خيرًا، ما الأمر؟

يوسف: أخيرًا يا سارة، أخيرًا.

سارة: ما الخبر؟

يوسف: كنت في إحدى المقاهي مع أصدقائي، نستمع إلى المذياع، ونشرب القهوة، وسمعنا خبر قيام الجمهورية في اليمن، كم أنا سعيد يا سارة.

سارة: حقًا؟

يوسف: إن يوم السادس والعشرين من سبتمبر سيبقى خالدًا، لقد زال عصر كان سيقضي على بلادنا.

سارة: كانت أيامًا مؤلمة.

يوسف: لقد عانينا كثيرًا، وعانى غيرنا، وآن الأوان لهم هناك للبدء من جديد.

رغم أنهم في بلاد المهجر؛ إلا أن أخبار اليمن لم تكن غائبة عنهم، ورغم أن اليمن أصبحت ماضيًا لهم، لكنها حقيقة مازالت حاضرة في قلوبهم، وفي تفاصيل حياتهم، ومستقبلها يهمهم بالتأكيد.

إنه عشق الأرض السعيدة التي أسعدتهم.

نعم، لقد تألموا فيها فترة من الزمن، لكنها كذلك كانت تتألم معهم، وآن لها أن تستعيد سعادتها، لتستعيد مجدها، وموقعها بين الأمم.

إن التاريخ مازال يُكتب في اليمن، وأرقامه لها دلالات ستبقى خالدة، وسعيدة للإنسان وللأرض، لكن ماذا عن التاريخ هنا؟

في هذه الأرض التي هم فوق ترابها الآن؟

هل كان لإعلان دولة إسرائيل قيمة حقيقة في النفوس هنا؟

أو على الأرض؟

هل سيخلده التاريخ كنضال له قيمته؟ أم أنه عار يجب مسحه؟

هل يفرحون بتذكره كما هو حالهم في هذه الليلة؟

هل أشعرهم باستعادة حق مسلوب؟

هل أفرح الإنسان والأرض؟ أم أن الأرض لن تطيق ذلك الإنسان الذي أراد أن يكتب تاريخًا جديدًا، ومزيفًا على ترابها، لتنتظر رياحًا تُطير بتلك الكتابات التي كُتبت على رمالها، ولم تُنحت على صخورها؟

مضت السنوات، بين شد وجذب بين الفلسطينيين والمحتلين على الأرض، ومع المكتسبات التي حققها الكيان الصهيوني في حرب 1967م، استقرت أمور اليهود كثيرًا في فلسطين، وهي حرب الأيام الستة كما كانت تسمى، والتي أدت إلى احتلال الكيان الصهيوني إلى سيناء، والكثير من الأراضي داخل فلسطين.

شعر المحتلون حينها بأن مستقبلهم هنا أمرًا أصبح واقعًا، بعد تلك الصراعات مع الفلسطينيين، رغم أن الصراع لم ينتهي بعد، لكن تلك الانتصارات تقدمت بهم لخطوات سريعة نحو الأمام.

ذلك الشعور بعث في نفوسهم الاطمئنان، وزادهم غطرسة بأنهم أصحاب الأرض، وعلى الفلسطينيين إما بالقبول بما آلت إليه الأمور، أو البحث عن حل آخر خارج هذه الأرض التي لم تعد لهم بأي حال.

إنها نشوة مؤقتة، فالصراع لن ينتهي طالما هنالك حق له مُطالب، والمُطالب فقط هو من ينهي ذلك الصراع متى ما توقف؛ وليس المحتل، إنها نظرية لن يفهمها المحتل، خاصة

مع تلك الانتصارات التي تحققت لهم في جولة، كانت عليهم مثل تأثير الخمر على شاربها لا أكثر.

ازداد يوسف ثراءً، وأصبح من كبار تجار الفضة في القدس، وكبر أبناؤه.

بعد وفاة شعيب كما أخبروه تبقى لديه موسى، الذي سماه على اسم أبيه، وهارون، وابنته أديل.

كان ليوسف جار فلسطيني اسمه السيد محمود جلال، من دير ياسين، والذي يملك دكانًا لبيع الحلويات، ولديه زوجة اسمها السيدة خديجة، وثلاثة أبناء هم فاطمة، وخالد، وسعيد.

كانت علاقة يوسف طيبة بجاره محمود.

أخذت أسرة محمود في مساعدة أسرة يوسف في الكثير من الأمور عند مجيئهم إلى القدس، رغم الحزن الذي كان باديًا على تلك الأسرة، بعد المعاناة الكبيرة التي عاشها الزوجان عندما عاصرا المجازر، والاغتصابات التي نفذتها عصابات الكيان المحتل في دير ياسين عام 1948م، ولم تترك لهم خيارًا آخرًا، ففروا خائفين، على أمل عون عربي يعيد لهم أرضهم.

كان بإمكانهم الهروب والهجرة، ولن يلومهم أحد بسبب التفاصيل التي عاشوها، لكنهم فضلوا البقاء في المناطق

المحتلة، بالقرب من قراهم التي هُجروا منها، فخيار الفراق مؤلم، لكن مواجهة الاحتلال هو الطريق الصحيح للعودة، ولو كان المقابل أن يؤسر منهم أو أن يُقتل، كما قُتل الكثير من سكان تلك القرى التي أُخرجوا منها.

إن ما حدث في قرية دير ياسين، عندما قام الصهاينة بذبح المئات من سكان القرية وحدها، ما بين طفل، وشيخ، وامرأة، هو أمر فضيع، تكرر في الكثير من القرى، والمناطق الفلسطينية الأخرى، من أجل ترهيب الفلسطينيين لترك أراضيهم، لذلك ساهمت هذه المذابح بشكل كبير في ترك الكثير من أهل القرى الأخرى، والمدن لبيتوهم، وممتلكاتهم، والهجرة باتجاه الجنوب في محاولة للنجاة من بطش الصهاينة، وساهم بالتالي في احتلال الصهاينة للكثير من الأراضي، وبناء المستوطنات.

تتذكر خديجة تلك المذبحة، فيسمع الجميع صوت نحيبها، ويشاهدون تساقط دموعها.

لقد فقدت في تلك المذبحة شقيقتها فاطمة؛ التي كانت تسكن إلى جوار منزلها، وتتذكر كيف أن فاطمة كانت في الشهر

السابع تنتظر مولودها، فدخلوا عليها، وشقوا بطنها، وقتلوها وجنينها أمام زوجها الذي قتلوه بعدها.

تتذكر كيف أنهم ذبحوا أسرة جارهم إبراهيم، دون رحمة، وأمام بعضهم البعض كبارًا وأطفالًا.

إنها مأساة يتذكرها أهل هذه القرية جيدًا، وتتداول أحداثها القرى الأخرى، فكان الهروب خير من مواجهة نفس المصير.

تلك الأحداث، وغيرها من أحداث؛ كتبت الكثير من قصص الألم والمعاناة، التي تم تداولها، ولم تدفن مع أبطالها.

يقيم سعيد، وشقيقته فاطمة في منزل والديهما السيد محمود، والسيدة خديجة، بجواز سفر إسرائيلي، تم منحهم إياه من قبل الكيان الصهيوني بعد احتلالهم للقدس، بينما خالد لايقيم معهم، بسبب أنه كان أثناء احتلال القدس في زيارة إلى بيت عمته في غزة، والذي بقي فيها بعد ذلك، ولم يستطع الدخول إلى القدس، ولذلك حمل وثيقة سفر مصرية،.

كُتب الفراق لعائلة السيد محمود، فأصبحت لا تستطيع الالتقاء ببعضها، والاجتماع.

كم كان ذلك مؤلمًا على أسرة صغيرة جمعها سقف واحد، وفرقتها حرب صهيونية، بمؤامرة غربية، وخذلان عربي.

كان بإمكان أسرة السيد محمود أن تغادر إلى غزة، أو إلى الضفة ليجتمع شمل الأسرة من جديد، مثل الكثير من الأسر التي هاجرت من حدود 48، بسبب هذه الظروف، لكنها قاومت مثل غيرها من الأسر مشروع التهجير، فسكنوا في مدنهم رغم الاحتلال، ورغم حالات الطوارئ التي فُرضت عليهم، ورغم الخونة الذين يعيشون بينهم لخدمة المحتل.

نعم، خونة من بني جلدتهم، ممن قبلوا بوضعهم الجديد، وتأقلموا مع المحتل، ظنًا منهم بأن مستقبل أجمل ينتظرهم، وبأن خياناتهم لدينهم وأرضهم لها مبرر.

بين كل تلك الظروف تمسكوا بأمل ظاهره ألم لا يعرفون متى سينتهي، وباطنه أمل بعودة أراضيهم لهم.

كم من أسرة واحدة تحمل جوازات سفر مختلفة، بين إسرائيلية، ووثيقة مصرية، وأخرى أردنية، ليجدوا أنفسهم في مطار واحد، أو نقطة تفتيش واحدة بثلاث أساليب للتعامل، فيسمح لهذا بالدخول، ويحرم الآخر، ويُحقق مع الثالث، والذي ربما قد يتم اعتقاله.

تفرقت الأسر، وهدمها الاحتلال، كما هدم بيوتهم، فتاهوا بين المدن والبلدان، لا يعرفون مصيرهم، ولا ما ينتظرهم، فغدهم هنالك من يقرره عنهم، من داخل الغرف المغلقة، وكيف سيعيشونه، إن بقى منهم على قيد الحياة.

تفرقت الأسر، فلعنوا تلك الأوراق التي فُرضت عليهم، فألقوها في الخزائن التي حملوها معهم من بيوتهم.

لم تكن خزاناتهم فقط تحتفظ بجنسية الكيان المحتل، بل كانوا كذلك يحتفظون بمفاتيح بيوتهم التي هُدمت، أو التي طردوا منها، لأنهم يعرفون بأنهم سيعودون إليها في يوم ما وإن غادروها، حتى وإن أصبحت دمارًا، فالمفاتيح هنا لها رمزية خاصة تعني لهم الكثير.

إنه اليقين الذي يحتفظون به في خزاناتهم، وليست مجرد قطعة معدنية.

مع مرور السنوات هاجرت بعض تلك الأسر إلى الدول العربية، أو إلى أوروبا، من أجل أن يلتم شملها، فكان لها أن جمع شملها مرة أخرى، لكن من أين سيأتون بزيت الزيتون على مائدة طعامهم، بعد ان قُلعت شجرتها مع بيوتهم؟

ومن أين لهم بفاكهة البرتقال التي كانوا يزيلون منها طينة تربة يافا قبل أكلها؟

وكيف لهم أن يسمعوا مرة أخرى صوت أذان الأقصى، الذي يناديهم كل يوم وليلة، فيظهرون له من كل أزقة القدس.

لقد فقدوا بهجرتهم الكثير من الروحانيات التي عاشوها في مسقط رأسهم، وإن تصبروا ببدائل أوجدوها، أدمعت أعينهم، ولم تشبعها.

كبر أبناء يوسف..

وتزوج موسى، وانتقل للعمل مع الموساد في يافا، أو ما تسمى (تل أبيب)، وانضم هارون إلى قوات الشرطة، وتزوجت أديل، واستقرت بجوار والديها في القدس.

كان لموسى زميل في الموساد اسمه شمعون، انضم حديثًا للعمل معهم.

كان شابًا يافعًا.

ملامحه تبدو عربية، والتي يجيدها بطلاقة، لكنه يكره العرب كرهًا شديدًا، لقد تربى على ذلك، أو أنه تم إعداده بشكل جيد لذلك، ولأمور أخرى.

ما كان يثير موسى في زميله الجديد؛ هو أنه يشبهه بدرجة كبيرة، ولاحظ زملاءهما في الموساد ذلك الشبه.

في هذه الأثناء لم تكن الأمور تسير للأفضل داخل الكيان المحتل بسبب هزيمتهم في حرب 1973م، والتي استطاعت مصر من عبور قناة السويس، وتحطيم خط بارليف، وكذلك سوريا التي استطاعت التوغل نحو الجولان.

كل تلك النتائج شكلت تهديدًا حقيقيًا للكيان المحتل، وتأخرًا نحو المضي لتحقيق حلم إسرائيل الكبرى.

تطورت العلاقة بين موسى وزميله شمعون، خاصة وأن مكتبيهما في غرفة واحدة، فعرفه على أسرته، وذهب به في إحدى المرات إلى القدس، حيث يقيم والداه في إحدى عطلاتهما.

عندما رأت سارة شمعون لأول مرة نظرت إليه بتعجب! وأقسمت بأنه شعيب.

نعم، هو شعيب..

لم يمت شعيب كما قيل لنا.

حتى يوسف لم يكذبها، لكنه لن يجزم، فشمعون هو ابن لآباء قدموا من إيرلندا كما قال لهم.

سارة: وكيف يكون من إيرلندا وملامحه تبدو عربية؟ بل يمنية؟

نعم، كيف يكون من إيرلندا؟

ولماذا مات هو، وكثير من الأطفال في يوم واحد؟ ولم يسلم من الحمى إلا القليل؟

لماذا لم نراهم قبل دفنهم؟

هل سلموهم لأسر يهودية أخرى كي ترعاهم؟

لماذا فقط أبناء يهود اليمن هم من ماتوا بالحمى دون غيرهم؟

هل هنالك سر ما؟

هل من عاقل يمكنه أن يجيبني؟

لم يتفاعل شمعون كثيرًا مع الأمر، بل لم يعره اهتمامًا يذكر، فقد قضى إجازته مع موسى، ثم عاد إلى تل أبيب.

لم يكن ذلك مستغربًا من شمعون، فهو ينتمي إلى يهود أوروبيين، ومن المستحيل أن يفكر في أن أصوله قد تكون عربية، أو شرق أوسطية، لقد تربى على ذلك، بل أن الكثير من اليهود العرب أو حتى الأفارقة يلاحظون فرق المعاملة، وكيف أن اليهود الغربيين متميزون عن غيرهم في كل شيء هنا، وكيف أن عنصيرتهم في تعاملاتهم واضحة مع غيرهم.

لكن هل من الممكن أن يكون شمعون هو فعلًا ابنًا ليوسف وسارة؟

لم يكن هذا السؤال يدور في مخيلة يوسف وسارة فقط، بل أصبح كل اليهود اليمنيين الذين يعرفون يوسف وسارة يفكرون في ذلك:

لو كان فعلًا شمعون هو ابنًا ليوسف وسارة، فأين أولادنا؟

هل ماتوا فعلًا كما قالوا لنا؟

كان هذا حديثهم في مجالسهم، حتى انتشرت القصة، وبدأ بالحديث عنها كل اليهود الشرقيين المهاجرين.

بدأت بعض الأسر بالتحرك، ورفع دعوى للتحقيق في قضية اختفاء أبنائهم قبل أكثر من عشرين سنة.

هل فعلًا قامت دار الرعاية باختطاف الأبناء لتعيد بناء هويتهم من جديد؟

هوية غير عربية، وغير شرق أوسطية؟

هل قامت باختطافهم وتسليمهم لأسر أوروبية لتتبناهم، وتقدمهم في المستقبل كيهود أوروبيين؟

مالهدف من هذا الأمر؟

ولماذا المهاجرين اليمنيين بالذات؟

لم يكن رفع دعوة قضائية أمرًا كافيًا، فلابد من تبني القضية إعلاميًا، حتى تحضى القضية باهتمام جهات التحقيق.

تم فتح تحقيق بالأمر، خاصة بعد أن كثرت الدعاوى المرفوعة من الكثير من الأسر اليمنية التي تطالب بالتحقيق في دعوى موت أبنائها بالحمى، ودفنهم دون رؤيتهم، والحديث الإعلامي الذي بدأ عنها من قبل وسائل الإعلام المختلفة، وبعض جمعيات حقوق الإنسان الإسرائيلية.

حاولت حكومة الكيان الصهيوني تغيير مجرى التحقيقات، أو على الأقل تأخيرها قدر الإمكان، مع محاولة تكتيم القضية إعلاميًا، فليس من صالح مشروعها أن تظهر القضية على السطح، ويتبناها الإعلام.

مضت السنوات، وتوفي يوسف، ولحقته سارة دون أن يصلا إلى نتيجة بخصوص ابنهما شعيب، حالهما حال الكثير من الأسر المهاجرة، والتي مازالت تبذل الكثير من الجهد والسعي دون الوصول لشيء، في ظل بطئ الإجراءات المتعمد لقتل القضية.

كانت سارة تتمنى قبل موتها أن ترى شمعون مرة أخرى، والذي كان يتحجج دائمًا بالأعمال، فقد زُرع فيه كره العرق العربي أو الشرق أوسطي، وإن تظاهر بالمودة إليهم.

تزوج شمعون من يهودية ذات أصول أوكرانية، وأنجب منها موشيه، ورانيا، وتزوج موسى من فتاة يهودية يمنية، وأنجب منها آدم، وسام، وداليا.

مضت السنوات ونشأ الأبناء.

إنه الجيل الجديد من اليهود الذين ولدوا داخل الأراضي المحتلة، والذي يختلف بالتأكيد عن الجيل الذي قبله، أولئك المهاجرين وأبنائهم، والذين حضروا إلى هذه الأراضي منذ عقود.

جيل جديد لا يعرف إلا هذه الأرض بلدًا له.

جيل تأكد له بأن الفلسطينيين سرطان يجب استئصاله من رحم هذه الأرض التي هم أحق بها دون غيرهم.

في عام 1980م أقر الكنيست الإسرائيلي قانون القدس، مؤكدًا أنها ستبقى العاصمة الموحدة لإسرائيل، وليس هنالك حق للفلسطينيين فيها.

ومع هذه القرارات؛ استمرت العمليات والاعتقالات بحق الفلسطينيين من قبل سلطات الاحتلال، لمواجهة أي ردة فعل من قبلهم، وقمعها، بل وتعدى الأمر إلى أبعد من ذلك، من قمع أي عملية، أو دعم من الممكن أن يحدث من خارج فلسطين، يؤثر على المقاومة في الداخل الفلسطيني، فقام الكيان الصهيوني بعمليات خارج الأراضي المحتلة، فقبل إعلان القدس، وبالتحديد عام 1978م، اجتاح جنوب لبنان، حتى نهر الليطاني، كرد على المقاومة هناك، عرفت بعملية الليطاني، وشن غارة على مفاعل نووي عراقي، بعد إعلان القدس، في عام 1981م، جنوب شرق بغداد، عرفت بعملية بابل.

دفع إعلان هذا القانون، وهذه العمليات، الفلسطينيين إلى تكثيف عمليات مقاومتهم للمحتلين.

نعم، لقد تأكد للفلسطينيين بأن المقاومة هي الحل، فقد رأى الكثير ممن هم داخل حدود فلسطين بأن الطريقة التي تتبعها السلطة الفلسطينية لن تحقق أهدافها، بل هي ما يريده المحتل،

وأن المقاومة هي الحل، فكانت الكثير من العمليات في أماكن مختلفة من الأراضي المحتلة، والتي كالت بالإسرائليين، وزرعت الخوف في قلوبهم، والتي ستبقى مستمرة ما بقي الاحتلال، بالإضافة إلى مواجهات بالحجارة مع سلطات الاحتلال المستمرة، من قبل المدنيين، صغارهم قبل كبارهم.

كان من ثمرات تلك المقاومة نشأة الكثير من الكتائب والفرق، في كل فلسطين، منها كتائب عز الدين القسام في عام 1984م، والتي تأسست من خيرة رجالات فلسطين، والتي بدأت بأسماء مختلفة، إلى أن استقرت على هذا الاسم في عام 1990م، وأصبحت الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، وهي أول فصيل مقاومة منظمة رسميًا، والتي تأسست عام 1987م، بعد الانتفاضة الأولى.

تلك الانتفاضة التي حدثت نتيجة تردي الأوضاع، وازدياد جرائم الاحتلال، فأشعلتها حادثة دهس شاحنة تابعة للاحتلال يقودها إسرائيلي لسيارة صغيرة بها مجموعة من الفلسطينيين، وقتلهم، فاعتبر الفلسطينيون ذلك حادث قتل متعمد، فكانت الانتفاضة التي دعمها حتى فلسطينيوا الداخل (داخل حدود الاحتلال)، من خلال المظاهرات المستمرة دعمًا

لإخوانهم في الضفة، وغزة، واستمرت حتى عام 1993م، بنتائج إيجابية أهمها الاعتراف بالوجود الفلسطيني في الضفة، وغزة، واعتبارهم مواطنين فلسطينيين.

لقد انضم لحركات المقاومة الكثير من أبناء فلسطين الذين عانوا من ويلات الحرب والاحتلال، ممن شاهدوا تلك المجازر، وهُجروا من ديارهم، ومنهم أبناء السيد محمود جلال، والذين دافعوا عن قضيتهم بكل بسالة.

إنها الثمرة التي لابد لها أن تنبت، طالما سقاها المحتل بدماء أبناء الأرض الحقيقيين.

بعد الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام 1987م، وبعد عمليات المقاومة، شعر الكيان الصهيوني بأهمية عقد سلام مع الفلسطينيين، وعُقدت لذلك عدة لقاءات، وقمم، بتنسيق أمريكي، وعربي، منها مؤتمر مدريد عام 1991م، إلى أن وصلوا في عام 1993م إلى اتفاقية أوسلوا، والتي وُقعت في واشنطن بين الكيان الصهيوني، ومنظمة التحرير الفلسطينية.

كانت هذه الاتفاقية في نظر بعض الفلسطينيين هي بوابة أمل، من خلالها يستطيع الفلسطينيون إدارة بعض المناطق إدارة ذاتية في الضفة الغربية، وفي غزة، لكن ذلك لم يثني المقاومة عن عملياتها، والتي رأت بأن الإسرائليين ليس لهم مكان داخل الأراضي الفلسطينية، خاصة بعد تصعيد أعمال القتل، والتهجير لكثير من الفلسطينيين من قراهم وبيوتهم، وكذلك بعد أن أظهرت قمة كامب ديفيد عام 2000م ذلك التلاعب الإسرائيلي الأمريكي؛ فكانت الانتفاضة الثانية، خاصة بعد دخول رئيس الوزراء الاسرائيلي لساحة المسجد الأقصى وتدنيسه، فكانت الانتفاضة والمواجهات مع جيش الاحتلال، والتي انتهت في عام 2005م، باتفاقية هدنة، بعد استشهاد أكثر من أربعة آلاف من الفلسطينيين، وأكثر من ألف

إسرائيلي مابين مجند، ومستوطن، وخسائر عدة في الآليات لدى جيش الاحتلال الإسرائيلي.

إنها المقاومة التي تثق بأن السلام لن يكون طالما وُجدت الصهيونية داخل حدود فلسطين.

كبر أولاد موسى، وكبر كذلك أولاد شمعون.

عمل آدم بتجارة الفضة، تلك المهنة التي حاول موسى أن يحتفظ بها أحد أبنائه ليواصل العمل في محل جدهم يوسف بالقدس، والتحق سام بالشرطة، وعملت داليا كصحفية في إحدى الصحف الإسرائيلية.

بينما التحق موشيه ابن شمعون بالموساد، وتزوجت رانيا، واستقرت في تل أبيب.

لم يكن الموساد خيار موشيه بقدر حرص القيادات الصهيونية على تبنيه.

إن موشيه يا شمعون يمتلك صفات مميزة نبحث عنها، إنه سيخدم عملياتنا خارج إسرائيل، فمازلنا كما ترى في بناء الدولة، وأمامنا الكثير من المهام التي لابد لنا من أن ننجزها.

كلمات قالها رئيس الموساد إلى شمعون، والذي كان قد رأى نجابة موشيه في مواقف سابقة.

تميز موشيه بسرعة البديهة، والذكاء الحاد، والقوة الجسمانية، كما أن ملامحه العربية ستفيده عند تنفيذ الكثير من المهام خارج إسرائيل.

نعم ملامحه العربية.

فهو ابن شعيب، أو شمعون كما أطلقت عليه الأسرة الإيرلندية التي استلمته من دار الرعاية وهو طفل صغير، بعد أن قامت الدار بتسليم يوسف والد شعيب شهادة وفاته.

نعم، لقد كانت مشاعر سارة تجاه شمعون صادقة، فهو ابنها الذي خُطف منها، وربته العائلة الإيرلندية وضمته لأوراقها على أنه ابنها، حاله حال كل الأطفال الذين ادعت دار الرعاية وفاتهم، وسلمت آباءهم شهادة وفاة، ثم سلمتهم ليهود غربيين ليقوموا بتبنيهم بأوراق رسمية جديدة.

إنه محو للهوية بلاشك.

وعنصرية واضحة.

إن كل محاولات الأسر مازالت تبوء بالفشل، فلا أدلة تقوي موقفهم، فكل الطرق تؤدي إلى شهادة وفاة تم تسليمهم إياها منذ عشرين عامًا، تقبلتها الأسر، دون أن تعلم عن تلك الخطة القذرة لاختطافهم.

تبنت داليا بنت موسى قضية تلك الأسر.

وهي كصحفية استقصائية كتبت الكثير من المقالات في هذا الجانب، والتقت بالكثير من الأسر التي فقدت أطفالها، ثم انتقلوا إلى مدن مختلفة.

كانت داليا بالنسبة لتلك الأسر صوتها الذي تريد من العالم أن يسمعه، وكانت هي بالنسبة للحكومة الإسرائيلية؛ الصوت الذي لابد له وأن يُكتم.

كانت تأتيها التهديدات على مقالاتها وتحقيقاتها الصحفية.

ظهرت مرة على إحدى القنوات الفضائية الإسرائيلية، عبر إحدى البرامج، تتحدث فيه عن فقد الأسر لأبنائها، وعن سير التحقيقات في هذه القضايا، وعن العراقيل التي تم وضعها أمام تلك الأسر.

كانت ترى بكاء جدتها على شعيب، خاصة بعد ظهور شمعون في حياتهم.

ياترى كم من شمعون يمر على تلك الأسر، ولا تعلم الأسر في أنه ابنها؟

هل هناك علاقة بين دور الرعاية، والمخابرات؟

من يدير تلك الدور، ويقرر لها؟

هل كانت دور الرعاية هنا مظلة لأهداف أخرى؟

هل هذه القضية قد تقودنا لفتح ملفات للكثير من المنظمات داخل إسرائيل، والتي تعمل تحت غطاء خيري؟

كلها أسئلة كانت تضعها داليا باستمرار أمام المجتمع داخل إسرائيل.

تعرضت داليا كصحفية للكثير من المضايقات من بعض المؤسسات الرسمية، ومن اليمين المتطرف داخل إسرائيل، حتى أنها كانت تتلقى تهديدات بالقتل من مصادر مجهولة.

تل أبيب 2009:

بعد كل سلسلة المد والجزر، وبعد كل الصراعات على الأرض مع حركات المقاومة، وبعد كل الاجتماعات خلف الأبواب المغلقة، ها هي تل أبيب مرة أخرى تتصدر المشهد، لتسير بخطواتها نحو مستقبلها الذي أرادوه لها.

تلك المدينة التي أرادها الصهاينة عاصمة لدولتهم المزعومة، فبنوها على أنقاض فاطمة التي قتلوها وجنينها، وفراق عائلة السيد محمود، ودماء عائلة جار السيدة خديجة، وحطام بيوت الكثير من الأسر، وحولوا اسمها لتل أبيب عام 1950م عندما التهمت يافا، بعد أن بدأت كضاحية مجاورة لها عام 1909م.

تلك المدينة التي لا تنام كما يصفها كل من زارها، وكيف يهنئ لها النوم، وهي شريكة في كل تلك الدماء التي اختلطت بترابها، فكان الطين الذي خالط بناء ناطحات سحابها، التي تطل على شواطئها الرملية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، حيث يستمتع سكانها بدفئ رمالها، وأشعة شمسها الشرق أوسطية لتحول أجسادهم للون برونزي لاتيني مزور، كزور تاريخهم، لتمتد تلك الناطحات لوسط المدينة، وتلتقي

بشوارعها التي لا تهدئ، من سياح أتوا لزيارتها، أو من مضاربي البورصة، فالمسؤولين أرادوا لها أن تكون مدينة اقتصادية جاذبة، فضمت تلك الناطحات الكثير من الشركات الكبرى، والأسواق العصرية، بماركاتها العالمية، فصنعوا حركة غير عادية في مطارها الذي يستقبل زائري هذه المدينة لبث الحياة فيها، لتوحي زورًا بأنها تسير بشموخ نحو مستقبل مزدهر، بوجه جديد، ومتطور.

رغم كل شيء فيها إلا أنه لا يبهرك كل ذلك.

تشعر وكأنه جرف هار سينهار بأصحابه الذين تقرأ الخوف على وجوههم كلما لمحتهم في طريقك، ورأيتهم يسيرون إلى جوارك في شوارعها الفسيحة والمنظمة، متجهين إلى ماتم منحهم إياه من تطور، ليقاسموا العالم ذلك التقدم، فشعورهم بأنهم جزء من رواية، لابد وأن يأتي من يقلب صفحتها الأخيرة يقلقهم، وهكذا يعيش اللصوص.

في قسم من أقسام مبنى الموساد الذي تضمه تلك المدينة، كان موشيه على مكتبه كعادته، يمارس لعبته المفضلة المسماه بالمزرعة، فيضيف لها ما يشاء من مباني، وأشجار،

ويشتري لها الحطب، والأبقار، ويصنع الخطط لاحتلال المزارع المجاورة لمزرعته.

لعبة جميلة يستطيع أي إنسان أن يلعبها، ويروي شغفه ببناء مزرعته الخاصة، دون أن يستولي على حق أحد، ويصبح من ملاك الأراضي، الذين يشار إليهم بالبنان من خلف الشاشات، بدل أن يشيروا هم ببندقياتهم على أرض الحقيقة لأصحاب الأرض الحقيقيين، ليخرجوهم ويبنوا دولتهم.

تلقى موشيه وهو مشغول بلعبته؛ استدعاءً من الضابط إيزاك، رئيسه في الموساد، للحضور إلى مكتبه بسرعة.

أريدك يا موشيه في مهمة خارج بلادنا.

موشيه: بالخدمة يا سيدي.

الضابط إيزاك: أنت ضابط ممتاز، وذكي جدًا، لقد اخترناك لهذه المهمة لعدة اعتبارات، أهمها أن ملامحك قريبة من ملامح العرب، كذلك سرعة بديهتك، وقدراتك المميزة، والفريدة.

موشيه: أشكرك سيدي.

الضابط إيزاك: ستذهب إلى اليمن، هنالك مجموعة من الوثائق التي نرغب بالحصول عليها.

موشيه: وأين هي هذه الوثائق؟

الضابط إيزاك: ربما تكون في بعض المحلات التي تبيع الفضيات والتحف في باب موسى بتعز، سمعت أن بعض التجار هناك يملكون بعض هذه الوثائق التاريخية، وبعضها قد تكون في مأرب أو صنعاء، أو زبيد، أو قد تكون في مدن أخرى، ستلتقي في تعز بالتاجر إسماعيل، وهو جاسوس زرعناه هناك منذ فترة، سيقدم لك كل التسهيلات التي قد تحتاجها، وتساعدك في أداء مهمتك.

موشيه: حسنًا سيدي.

الضابط إيزك: أخبر أسرتك وأصدقاءك بأنك ستذهب إلى لندن في دورة عسكرية، قد تطول.

مهمتك سرية يا موشيه، إنك أمام واجب وطني مهم، عليك تنفيذه بدقة، إننا نريد أن نبني حضارة إسرائيل، إن لنا إرثًا كبيرًا لابد لنا من أن نسترده في اليمن، ومصر، والعراق، والشام، إننا نخوض حربًا حضارية وثقافية في كافة المجالات، لا تقل عن حربنا العسكرية، وإن مهمة إثبات بأن وجبة الفلافل أصلها إسرائيلي لا تقل أهمية عن مهمة إبادة قرية.

كما أريدك أن تدرس باب موسى جيدًا.

إننا نشعر بأنه يمكننا استغلاله لصالحنا، بقصةً ما تدور حوله، لتهمنا كيهود، تكون متعلقة بنبي الله موسى، اسكن بالقرب من باب موسى، وراقب اليمنيين جيدًا، وزودني بالتقارير، واترك الباقي لنا، وانتظر التعليمات.

إن حضارة اليمن، وقصور بلقيس هي إرث سليمان، ولا بد لنا من استعادة ذلك الإرث.

بكل السبل.

إننا لا نخدع أحدًا، فنحن شعب الله المختار، وكل ما في الأرض هو إرث لنا، لابد لنا من استعادته بكل السبل المشروعة، والغير مشروعة، هذا أمر مقدس لا جدال فيه.

لتعلم ذلك جيدًا يا موشيه؛ وأنت تؤدي مهمتك.

غادر موشيه إلى لندن، ومكث فيها أسبوعًا، ومنها توجه إلى اليمن بعد أن تم دعمه بجواز سفر بريطاني تحت اسم صفوان.

وصل موشيه إلى مطار تعز، وأنهى إجراءات وصوله، ثم توجه إلى بوابة الخروج.

كانت العاشرة صباحًا، وكان الجو باردًا.

استقبله صاحب سيارة أجرة، وبعد أن اتفق معه؛ ذهب به إلى فندق في شارع جمال، بالقرب من باب موسى، ذلك الباب الذي يعرفه كل سكان تعز، بل وكل اليمن.

هو أحد أبواب تعز الأربعة، لا يقل أهمية عن باب اليمن في صنعاء، ولا الباب الكبير في تعز.

باب تنبعث منه رائحة البن اليمنية، حيث كانت تخرج منه قوافل البن من قرى تعز، متجهة إلى ميناء المخا، لتغزو العالم مع خيرات اليمن التي تحملها السفن إلى أقاصي الدنيا، لذا فهو الباب الذي يسترزق منه التعزيون في تجارتهم مع العالم.

ما إن تدخل باب موسى حتى تشعر بتفاصيل الأسواق القديمة. تلك الأسواق التي تجد مرتاديها مبتسمون رغم بساطتهم.

بائع هنا يستقبل الزبائن.

وآخر يتحدث مع جاره.

وثالث يسأل عن عنوان.

ومقهاية هناك تناثرت طاولاتها على طول الشارع، يرتفع منها صوت التلفاز على نشرة أخبار، يبحث مستمعيها عن بطل قومي يمجدون له، ويشفي صدورهم التي أنهكتها الحياة قبل السياسة.

ومدخل أزقة لبيوت أهل الحي، ينتهي بك إلى ساحة بها أطفال يلعبون بالكرة، وآخرون يجلسون ليستمتعوا بحديث، وجارة تطرق باب جارتها.

ما يميز سوق باب موسى هو كثرة المحلات الأثرية، وكيف لا تكثر هذه المحلات في بلد كان مع بداية الحياة على هذه الأرض هو الدنيا بكلها، فلا حياة خارجه، ففاضت متاحفه بتراث لم تعد رفوفها تجد له متسعًا.

باب أصبح اليوم محاطًا بالبيوت والمحلات التجارية من جهاته الأربع، بعد أن كان مدخلًا من مداخل تعز، تجد الحياة تدخل من خلاله.

لقد كبرت تعز مثل أخواتها اليمنيات، فأصبحن جدات لمدن العالم، بعد أن أرضعن الدنيا من حضاراتها العتيقة، قديمًا وحديثًا.

تأمل موشيه كل ذلك وأخذه العجب، فمناظر كهذه من الصعب أن يراها في مجتمعه هناك في تل أبيب، فلا تاريخ هناك إلا ما حاولوا أن يمحوه من حضارة من احتلوهم، فالمحتل لن يستطيع أن يبني حضارة على أنقاض أخرى لأن الأرض التي تُسقى بعرق محتل لا يصل إلى باطنها، بل يتبخر مع شمس الحقيقة التي تشرق في اليوم التالي.

مع حلول الظلام عاد موشيه مرة أخرى إلى الفندق للخلود للنوم، ومع صباح يوم جديد التقى بالتاجر إسماعيل بعد أن اتصل به ليعلمه عن تواجده في تعز.

في هذه الأثناء تلقت داليا الكثير من التهديدات من مجهولين؛ في حال استمرارها في تحقيقاتها الاستقصائية، في قضية أطفال يهود اليمن، خاصة وأنها قامت بعمل لقاءات مع العاملات في دار الرعاية في ذلك الوقت، واللاتي تضاربت آقوالهن تجاه الأحداث، مما جعلها تُمسك بخيوط ساعدتها في تحقيقاتها، بالإضافة إلى أن الشارع الإسرائيلي أخذ يتحدث كثيرًا عن القضية، ما جعل كبار المسؤولين في الحكومة يلتقون ببعض ذوي الأسر، ويبلغونهم بمتابعتهم الشخصية للقضية، كنوع من التهدئة.

بعد فترة من تلقي داليا للتهديدات تعرضت لحادث مروري، وهي تقود سيارتها.

نجت داليا من الحادث، لكنها أصيبت ببعض الجروح التي أقعدتها السرير لعدة أيام.

ظنت داليا للوهلة الأولى بأن السيارة الأخرى هي من تسببت بالحادث، إلى أن أخبرها الميكانيكي بأن هنالك من عطل عمل الفرامل التي لم تعد تعمل بشكل جيد.

نعم، لعلها محاولة اغتيال يا داليا.

لقد أخبرتكِ مرارًا بأن تنتبهي لنفسك، وتتوقفي عن الكتابة في بعض القضايا الحساسة، التي ستجلب لكِ بالكثير من الأضرار الغير متوقعة.

قال لها شقيقها آدم هذه الكلمات وهو ينظر إليها بخوف.

داليا: لكن ما حدث لن يجعلني أتراجع عن تحقيقاتي.

آدم: لكن!

داليا: لكن ماذا يا آدم؟ هل تريد مني أن أكتم صوتي، وأغلق قلمي؟ لقد تعودت على الكتابة بحرية، وعلى قول الحق، والدفاع عن المظلومين، لقد علمني أبي ذلك.

عن ماذا تريدني أن أكتب؟ هل أكتب عن فوائد الحليب؟ أم أمتدح عمل الحكومة في افتتاح حديقة عامة؟ أم أصبح محللة رياضية لأشغل الناس عن قضاياها الحقيقية؟ أم تريدني أن أدير صفحة الكلمات المتقاطعة في الصحيفة؟ من سيكون صوتًا للمظلومين؟

من سيكتب عن تقصير الحكومة؟

آدم: لماذا لا تسافرين يا داليا، أعتقد بأن ذلك هو الأفضل لكِ.

داليا: هل تريد مني الهروب؟

آدم: لا أقصد ذلك ابدًا، لكنكِ بقاءكِ هنا قد يعرضكِ للضرر.

داليا: أنا كصحفية معرضة دائمًا لمثل هذه المواقف طالما أردت كشف الحقائق، ولن أتخلى عن أي قضية يا آدم طالما أن الحقيقة لم تتضح بعد، لا بد لي من كشفها، وإبراز الحقيقة، هذا دوري كصحفية.

آدم: ولكن!

داليا: ماتت والدتنا دون أن ترى شعيب، هل مازلت مصدقًا بوفاته عندما كان طفلًا؟

آدم: أعرف، لكنني قلق بخصوصكِ يا داليا.

داليا: أعرف ذلك، ولكن!

آدم: كنت أنوي السفر إلى اليمن، أريد أن أراها، لقد سكن بها جدي وجدتي كما تعلمين، وعاش والدي ووالدتي جزءاً من طفولتهما فيها، لنا هناك بيوت، وكذلك محل فضيات، أخبرتني جدتي أنه لوالدها في تعز، يديره الآن أبناء أخوالنا، ألا تفكرين بالذهاب معي لزيارتها؟

داليا: ثم ماذا يا آدم؟ مالذي تريد أن تصل إليه؟

آدم: لم لا تذهبين معي؟

تزورينها، تستطيعين أن تواصلي كتابة ماتريدين هناك، على الأقل ستكونين في مأمن.

اذهبي معي وفكري هناك في الأمر، وعودي عندما تجدين بأن ذلك مناسبًا لكِ.

لقد تعرضتي لمحاولة اغتيال هذه المرة، ولا نعلم ما سيحدث لكِ غدًا.

سأرتب مسألة دخولنا إلى اليمن مع صديق لي في مصر.

رأت داليا بأن هذه الفكرة جيدة، على الأقل ستزور بلد أجدادها، وفي نفس الوقت ستخوض تجربة كتابة التحقيقات عن بُعد، خاصة وأن العالم أصبح قريةً صغيرة، وتستطيع الوصول للمعلومة بكل سهولة، بالإضافة إلى كونها تستطيع أن تعود متى ما رأت ذلك.

بدأت داليا تستعد للسفر مع شقيقها آدم، والذي فضل بأن لا يخبر أحدًا بذهابه إلى اليمن، وذلك لأجل داليا التي يرى بأن لا يعلم أحد عن وجهتها، لذلك فضلا الذهاب إلى مصر، ثم بعد ذلك يتوجهان عن طريق غير مباشر إلى اليمن، فدخول الإسرائليين إلى اليمن غير ممكن من جهة، ومن جهة أخرى لا يرغب بإخبار أحد عن وجهتيهما.

كم هو مؤلم أن يصبحا غير مرحب بهما في بلد ينتميان إليه.

في بلد تكونت أجسادهما من ترابه، لكنه العار الذي لحق بذلك الجسد، يوم أن حمل لقب ذلك الكيان.

كان آدم على علاقة ببعض تجار الفضة المصريين الذين يأتون إلى إسرائيل، ومنهم التاجر صبحي، والذي يقيم في القاهرة، والذي أبدى له رغبته بزيارة مصر، لشراء بعض التحف، وزيارة بعض المناطق السياحية.

بدأت داليا بتجهيز حقائبها، وتجميع ملفاتها في ذاكرة تخزين خارجية، وطلبت إجازة من الصحيفة بحجة الاستمتاع بإجازتها السنوية.

كان الأمر عاديًا بالنسبة لها.

لم تشعر بشعور الألم، أو الحنين.

كانت تستغرب ذلك.

تستغرب برودها العاطفي للأرض، وللأماكن، ولكل شيء هنا.

هي لا تعلم متى ستعود، أو ربما لن تعود.

كل شيء ليس واضحًا أمامها، لكن الأكثر وضوحًا لديها أنها لم تشعر بعشقها الكبير لإسرائيل، رغم كل جهد تبذله لأجلها.

لأجل كشف الفساد، والدفاع عن المظلومين، لترتقي البلد.

أوليس دفاعها عنها عشق؟

ألا يعني تحملها للمخاطر، وللاتهامات الباطلة من أجل محاربة الفساد عشق؟

لم يتهموننا بالخيانة عندما نتحدث عن جروح الوطن، ومشكلاته، وقضاياه؟

لم يتهموننا بالتحريض عندما نتصدر لكشف فساد مسؤوليه؟

عن أي خيانة أو تحريض يتحدثون؟

وكيف يقيسون بهما الأمور؟

من تسبب بالفساد؟

من المحرك الحقيقي لغضب الشارع؟ هل هم أولئك الذين يدافعون عن قضايا الشارع، ووضعوا أيديهم على جروح وطنهم؟ أم أولئك الذين سرقوا الوطن، وخيراته، وتحكموا بمصيره؛ إلى أن ضاق الناس، وثار الشارع؟

كانت داليا تتألم لآلام الناس، وكانوا هم سبب تلك الآلام، فكانوا الوطنيون، وكانت الخائنة.

ها هي تغادر بلدها، هاربة، وقد يكتبون عنها غدًا بأنها مدعومة من أعداء الوطن، وأنها خادمة لأجندتهم ليظهروها بمظهر الإجرام، ويفوزوا هم بالانتخابات.

غادرت، وشعورها ليس ذلك الشعور.

ربما لأن هذه الأرض ليست لها.

لأن جسدها لم يتشكل من تربة ذلك المكان.

لقد خانها ساستها حين جلبوا أهلها إلى هنا، وأخبروهم بأن هذا المكان مكانهم، فحرموها شعور الحنين، وها هي تودع المكان، دون حتى أن تقبل الأرض دموعها التي رفضت أن ترتويها، بل بقيت إلى اليوم التالي؛ إلى أن بخرتها حرارة الشمس.

حزمت داليا حقائبها، وهكذا فعل آدم، وتوجها إلى القاهرة لقضاء بعض الوقت فيها من أجل شراء بعض التحف، وزيارة الأهرامات، ثم التوجه إلى الغردقة.

هكذا أخبر الجميع، وهكذا كانت البداية.

وصل آدم وداليا إلى مطار القاهرة، وكان صبحي بانتظارهما.

رحب بهما، وأخذهما إلى بيته لتناول طعام الغداء، ثم نزلوا في أحد الفنادق المطلة على النيل.

بعد أن أقاما عدة أيام في القاهرة، وبعد أن زارا أغلب الأماكن التاريخية بها، استأذن آدم من صبحي بأن يشحن له التحف إلى القدس، على أن يذهب هو وشقيقته داليا إلى الإسكندرية.

نعم، الإسكندرية.

تلك العاصمة القديمة لمصر، والتي بناها الاسكندر الأكبر سنة 331 قبل الميلاد.

حارسة البحر الأبيض المتوسط.

تلك الجميلة ببحرها الذي ينسيك شقاء الأيام، وبنسيمها المنعش الذي يعيد الانتعاش، والنشوة لمستنشقيه.

والرائعة بطيب سكانها، وبساطتهم.

بها فنار الاسكندرية، أعجوبة من عجائب الدنيا، والتي تعد أقدم منارة في العالم، ومكتبتها العملاقة، والتي تعد من أقدم مكتبات الدنيا، والتي تضم أكثر من ثمانية ملايين كتاب.

تلك الجميلة بكل شيء فيها، حتى بأكلاتها البحرية المميزة، والتي قل أن تتذوق مثلها في أي مكان آخر، وإن تشابهت الأسماء.

كان أسبوعًا جميلًا، استمتعا فيه بكل شيء هنا، ترك في مخيلتهما أجمل الذكريات، وكيف لا تبقى لهما تلك الذكريات، طالما كانا في حضرة أميرة البحر الأبيض المتوسط.

بعد أن قضى آدم وداليا أسبوعًا في الاسكندرية، غادراها برًا إلى الغردقة، والتي غادراها في نفس الليلة، بعد أن نجح صديق لآدم بالتنسيق مع أحد المهربين، والذي أدخلهما سرًا، وبالترتيب مع قبطان سفينة إلى سفينة شحن يقودها، تعود لإحدى شركات الاستيراد والتصدير الكبرى، المتجهة إلى الحديدة.

دخلا إلى إحدى غرف السفينة، والتي وفر لهما فيها كل ما قد يحتاجان إليه، وطلب منهما عدم الخروج حتى يأتي إليهما، عند وصول السفينة إلى وجهتها.

استغرقت الرحلة وقتًا لا بأس به، ورغم ذلك كانت مقلقة بالنسبة لهما، ومتعبة، لكنهما وصلا على كل حال إلى وجهتهما.

وصلا إلى ميناء الحديدة مع الفجر، واستطاع القبطان إنزالهما من السفينة بالتنسيق مع أحد أصدقائه اليمنيين، والذي كان ينتظر وصولهما.

بعد رحلة عناء، ولحظات خوف، وترقب، عاشوها في تلك السفينة، ها هم يصلون إلى الحديدة مع صوت الأذان الذي كان يُسمع من كل ناحية.

صوت يعرفانه جيدًا، منذ أن كانا في فلسطين، فكان يصدح من كل ناحية من نواحي القدس، ليخبرهم بأن هذه الأرض التي جاء آباءهم إليها، لها أهل ينتمون لها، ويُلبون نداءها عندما تناديهم بصوتها، الذي يعرفونه جيدًا، كما يعرف الأبناء صوت نداء أمهاتهم.

سارا بين شوارع الحديدة، يزاحمون بصوت قرع نعالهم؛ صوت قرع نعال الرجال والفتيان، الذين يخرجون من بيوتهم باتجاه مساجدها.

عروس البحر الأحمر، كم هي جميلة هذه المدينة الساحلية، وساحرة، وكم هي تبعث في نفسي الاطمئنان منذ أن وطأت قدمي أرضها.

قالتها داليا لآدم وهي تنظر إلى شاطئ البحر، مستمتعة بهدير أمواجه التي عادت للحركة بعد انتهاء الأذان، وكأنها كانت خاشعة لصوت ذلك الأذان، تمامًا كما هو حال ساكنيها.

آدم: نعم، هي كذلك، إنها تذكرني بشواطئ البحر الأبيض المتوسط التي كنا نزورها مع والدينا، كم كان يطربني هدير أمواجه كثيرًا يا داليا.

داليا: كانت أيام، ليتنا نسكن في أحد فنادق الحديدة أيامًا لنستمتع بالبحر.

آدم: أتمنى ذلك، لكن لا ينبغي علينا المكوث هنا طويلًا، سنذهب مباشرةً إلى تعز، لنلتقي بأخوالنا هناك.

سأل آدم أحد سكان الحديدة عن كيفية الذهاب إلى تعز، فأخبره بالذهاب إلى الفرزة (مكان تجمع الباصات).

ذهبا إلى هناك، وكم كان صوت المناديين عاليًا، وعشوائيًا.

منادي ينادي صنعاء.

وآخر المحويت.

وذاك إلى عدن.

ثم سمعا مناديًا ينادي إلى تعز، فركبا معه متجهين إليها بأمل اللقاء بأقاربهما.

كم هي رائعة اليمن، لم أتوقعها بهذا الجمال.

آدم: إنها رائعة، لقد تذكرت جدتي سارة، وهي تصف لنا جمالها، لقد أبدعت في تصويرها لنا رغم كبر سنها، ورغم مضي سنوات كثيرة على مفارقتها لها.

داليا: نعم، لقد كنت أرى الدموع في عينيها، وهي تقص علينا قصصها هنا.

الخضرة كانت على جانبي الطريق، ومزارع المانجا منتشرة هنا وهناك، وفي كل مرة يرون قرية من قرى تهامة الجميلة.

صبي يمشي وأمامه قطيع من الماعز.

وفتاة هناك تمشي مع صديقتها محملتين بالماء.

بسطات لبيع ما لذ وطاب من القراع (طعام الإفطار بلهجة الحديدة، وتعز).

إنها بساطة الريف اليمني الأصيل.

كان الجو يزداد برودة كلما اقتربوا من تعز التي مروا بعد ذلك بقراها، فشاهدا مزارع البن والقات، والمانجا.

ها قد وصلنا، **قالها السائق لهما بعد أن اسكت أيوب طارش من خلال جهاز التسجيل وهو يغني للمطر.**

زخات المطر هي أول ما استقبلتهم في تعز، رغم أن الشمس مازالت مشرقة.

كم هي تعز جميلة.

قالتها داليا لآدم، وهي تستمتع بتبلل ملابسها بزخات ذلك المطر.

أخذا يمشيان، فمن يركب مواصلات في مثل هذه الأجواء الساحرة؟

لم يعكر تلك الأجواء إلا أصوات الموترات (دراجة نارية)، والتي تسير بعشوائية في شوارع تعز، بأصواتها المزعجة، لتعكر جمال تلك اللوحة الرائعة لتعز الساحرة.

استأجرا فندقًا في شارع جمال، ووضعا حقائبهما في الغرفة، والتي ارتاحا فيها لبضع دقائق، ثم غيرا ملابسهما، وخرجا بعد ذلك بسرعة، للتنزه في شوارع تعز، بعد أن توقفت زخات المطر.

وإلى باب موسى كانت الوجهة، أخذا يتجولان فيه، متأملين تلك الدكاكين.

آدم: أخبرتني جدتي ذات مرة بأن محل والدها الموجود هنا، هو ثالث محل من اليمين، بعد الدخول من باب موسى.

داليا: هل تعتقد بأن المحل مازال موجودًا، بعد كل هذه السنين؟

آدم: ربما، اليمن بلد يحتفظ بذكرياته.

الوقت كان عصرًا، والسوق مزدحم بمرتاديه.

بين جنباته كان الناس يتبادلون الأحاديث في مقاهييه التي يعلو صوت تلفازها بنشرات الأخبار، والنساء بحجابهن الكامل ما بين التبضع بين المحلات لشراء ما يحتجن له من أقمشة وعطور، أو في محلات البهارات والأطعمة.

واصلا تجولهما، وأعجبا بالبساطة التي شاهداها، وبكمية التحف الرائعة التي ضمتها المحلات، وشعرا كم هي اليمن بلد حضاري عتيق، وكم يملك من شعب رائع.

آدم: اعتقد أنه ذلك المحل، انظري للوحة التي تعلوه (بن يامين للفضيات والتحف).

داليا: فعلًا، لنذهب إليه بسرعة.

آدم: توقفي، لا تخبريهم عن اسمك حتى نتعرف عليهم جيدًا.

داليا: حسنًا.

دخل آدم وشقيقته داليا إلى المحل.

كل شيء في المحل يبدو رائعًا، وكأن تاريخ اليمن يعرض أمامهما.

مخطوطات تاريخية، تحف نادرة، بالإضافة إلى خواتم فضة رجالية ونسائية على طاولة أمامهما.

نظرا إلى صورة معلقة في وسط المحل، ثم نظرا إلى بعضهما، وبصوت واحد: إنه هو.

نظر إليهما صاحب المحل باستغراب، وسألهما عن معرفتهما بصاحب الصورة!

ادعا بأنه يشبه قريب لهما، وخرجا بسرعة.

عاد آدم وداليا إلى الفندق، وأخذا يفكران في الأمر.

كيف سيكشفان عن شخصياتهما لأقاربهما؟

كيف سيتعرف جيل الأحفاد على بعضهم؟

وهل سيتم الترحيب بهما؟

أخذا يفكران في طريقة للتعريف بنفسيهما.

بعد تفكير قرر آدم وشقيقته التعرف إلى عائلة بن يامين عن قرب، وقررا الذهاب إلى منزل العائلة على أنهما يهوديان عادا إلى اليمن للبحث عن عائلتهما.

في صباح اليوم التالي ذهب آدم وداليا إلى بيت العائلة، بعد أن دلهما عليه أحد الأهالي في سوق باب موسى، عندما سألاه عن عنوان بيت صاحب المحل.

عمارة سكنية بالقرب من باب موسى، تجمع أحفاد موسى بن يامين، كان قد اشتراها لأبنائه لقربها من دكانه، بعد هجرة اليهود إلى أرض الميعاد، وإزالة الحي اليهودي القديم في تعز.

عمارة كبيرة المساحة، تضم أربعة أدوار، في كل دور ثلاث شقق، باستثناء الدور الأول والذي يضم شقتين فقط، إحداها لتجمع العائلة في المناسبات، أو لاستضافة قريب جاء من سفر.

طرقا باب إحدى الشقق، ولحسن حظهما أنها كانت شقة صاحب المحل الذي التقيا به في محل جدهما.

رحب بهما، وأدخلهما، ودخلت داليا إلى غرفة استقبال النساء.

عرف إبراهيم (وهو اسم الرجل الذي قابلاه في محل الفضة، وهو حفيد موسى بن يامين) قصتهما، فلم يستطيعا أن يختلقا قصة البحث طويلًا، بسبب أنه لاحظ نظراتهما لصورة جده، وتأكد من أنهما فعلًا أحفاد موسى بن يامين.

كم كانت فرحته كبيرة بأحفاد جدته سارة بن يامين.

وفرحت بهم كذلك كل العائلة.

أصر عليهما إبراهيم بالسكن معهم في العمارة، بدل أن يسكنا في الفندق، فهما أحفاد موسى بن يامين، ومن حقهما السكن هنا، ووافقا على ذلك.

قام إبراهيم بتجهيز شقة في الدور الأول؛ لتكون سكنًا لآدم وداليا.

كانت فرحة آدم أكبر بهذا العرض، لأنه سيستطيع العودة إلى القدس في أي لحظة وهو مطمئن على داليا.

كان يومًا جميلًا، تناولا فيه طعام العشاء مع أفراد العائلة، على مائدتين احتوت على مالذ وطاب، من الأكلات الشعبية في تعز.

هل تعرف يا آدم، لقد شعرت هنا بشعور لم أشعره من قبل عندما دخلت العمارة.

آدم: وما هو يا داليا؟

داليا: شعرت بأنني في مكاني الذي أمتلكه، لم أشعر بهذا الشعور أبدًا ونحن في القدس التي ولدت فيها، وعشقتها، لكن لا أعلم لماذا لم أشعر بالراحة أو الاستقرار إلا هنا.

آدم: وأنا كذلك ياداليا، لكن ربما لأننا في سكن جدنا، ولم نشعر بغربة بين أخوالنا.

داليا: ربما.

بالتأكيد كان شعورًا مختلفاً هنا، فهنا هما في أرض آبائهم، وليسوا محتلين لأرض غيرهم.

هم في الأرض التي لم يأتوا إليها عنوة، ولم يُشعرهم من حولهم بأنهم أغراب جاؤوا لاقتناص حق غير شرعي.

هم هنا لم يشعروا بخوف، فهم لم يسرقوا شيئًا، ولا يوجد من يتهمهم بذلك.

هم هنا في أملاك جدهم.

على تربة الأرض التي تشكلت منها أجسادهم.

مرت الأيام، ومضى على وجود داليا وآدم شهر وعدة أيام في اليمن.

زارا الكثير من المناطق المجاورة، وتعرفا على الحضارة اليمنية العريقة، واستمتعا بجبالها وسواحلها.

عاد آدم إلى القدس عن طريق مصر، بنفس الطريقة التي دخل بها إلى اليمن.

عاد بعد أن ترك داليا في تعز، في بيت جدها.

عاد وخوفه عليها خف كثيرًا عن قبل.

نعم، مم يخاف عليها؟

فلقد تمنى لو يأتي هو بأبنائه، ويبقى هنا معها، بعد أن رأى كيف أن حياتها، وروحهما أصبحت أجمل.

شعور لم يعرفا سببه، لكنها الراحة التي لم يشعران بها من قبل.

إنه الإحساس الذي يتملك الإنسان حين يعيش في مكان دون أن يشعر بأنه قد أخذ مكان أحد.

دون أن يشعر بأن هنالك من هُجر من بيته ليسكن هو.

دون أن يشعر بأنه لا ينتمي لتراب الأرض التي هو عليها، ولا لجدران الأبنية التي تحيط به، وأن تلك السماء التي تمطر ماءً لا تروي عطشه، وأن البحر الذي يذهب إليه حال حزنه لا يزيل همه.

وبأن الثمن الذي يتم دفعه لسكنه هنا هو رصاصات، أطلقها من أحضره، باتجاه من لا يريده.

واصلت داليا عملها الصحفي بعد أن استقرت في تعز، حيث قامت بإعداد تقاريرها، وإرسالها عبر البريد الإلكتروني إلى الصحيفة التي تعمل بها داخل الكيان المحتل.

استمرت في تقصيها عن أطفال يهود اليمن المفقودين، حتى ازداد التفاعل الشعبي مع القضية داخل الكيان المحتل، وازدادت عدد الأسر التي رفعت بلاغات للنائب العام لتحريك القضية.

أصبحت داليا بعد أن شعرت بالأمان في تعز أكثر جراءة على طرح القضية، بل زاد أن اتهمت الحكومة الحالية، وبعض الحكومات السابقة، وكذلك بعض المؤسسات، بالفساد تجاه بعض القضايا الأخرى.

كبر اسم داليا يارون، تلك الصحفية الجريئة داخل المجتمع الإسرائيلي، وطالبت الأحزاب اليمينية باعتقالها عدة مرات، ولولا أنها خارج إسرائيل لتم تصفيتها.

إن الحريات في المجتمع الغربي وهم خُدعنا به، فمتى ما كان الرأي يضر بمصالح حكوماتها؛ كشرت له عن أنيابها، خاصة لو كانت تلك الآراء تضر بأهدافها الاستراتيجية.

إن الأنظمة الغربية توهمنا دائمًا بحرصها على تحقيق مقومات الحكم، والمتمثلة في تحقيق العدالة، والحرية، والكرامة، لكن كل ذلك لن يكون له قيمة متى ما شعرت بأنها في خطر قد يهدد مستقبلها، فيظهر استبدادها الغير منضبط، ويضيع احترامها لأهل الاختصاص، ويبقى فقط من يدين لها بالولاء.

إن الحرية الحقيقية لن ترعاها حكومات تبحث عن مصالحها، ولا برلمانات تقودها أحزاب، بل أصحاب الرسالات، المتجردين من المصالح، العاملين لخير أوطانهم.

أعجبت داليا كثيرًا بالحضارة اليمنية، صحيح أنها سمعت عنها الكثير قبل مجيئها إلى اليمن، وأنها شاهدت اهتمام والدايها بذلك من خلال تمسكهم بالعادات اليمنية داخل المنزل، لكن إعجابها ازداد حين زارت قلعة القاهرة، والمتحف الوطني، فقد كان يومًا جميلًا، حينما توجهت مع ليلى ابنة جدها، وابنة عم إبراهيم، والأستاذة بقسم التاريخ والعلوم السياسية بجامعة تعز، لزيارة قلعة القاهرة، تلك القلعة التي تشرف على تعز من مطل على السفح الشمالي لجبل صبر، والتي كانت حصنًا بناه السلطان عبدالله بن محمد الصليحي، في مطلع القرن السادس الهجري.

استمتعت أكثر حين تناولت القهوة من ذلك المرتفع، مستمتعة بالنظر إلى مدينة تعز، وكأنها بلقيس تراقب شعبها.

ما أجمل القهوة المصنوعة من البن اليمني الأصلي، بجودته الفاخرة، ومذاقه الخاص، حين يحتسيها الإنسان أمام هذه الطبيعة الربانية من ذلك المطل.

قالتها داليا وهي تنظر إلى ليلى، ثم حلقت ببصرها إلى أحياء تعز العريقة، وبيوتها الجميلة، من ذلك المطل.

قادها ذلك الجمال إلى التفكير لزيارة الأماكن الأثرية في اليمن، كعرش بلقيس، أو معبد مران في مأرب، وغيرها من الأماكن التاريخية، ورحبت ليلى بفكرة الذهاب معها.

لقد أحبت داليا ليلى كثيرًا، فقد أصبحت صديقتها المقربة، وابنة جدها المرافقة لها في كل يومها، واندمجت كذلك مع كل بنات أخوالها، وشاركتهم لحظاتهم السعيدة.

في صبيحة يوم جميل؛ ركبت داليا مع ليلة الباص، ورافقهما داود شقيق ليلى الأصغر في رحلتهما إلى مأرب.

من النادر أن يأخذك الملل حين تسافر بين محافظات اليمن المختلفة، فقد استمتعوا كثيرًا بالمناظر الخلابة بين تعز ومأرب، مروا خلالها بمدينة إب الجميلة بمناظرها الساحرة، ومصطحات جبالها الخضراء، ومزارعها المترامية هنا وهناك. ثم مروا بذمار، وشاهدوا الكثير من الخيول العربية الأصيلة التي تمتاز بها، وقراها التي تضم مزارع الحبوب والخضروات، ومما زاد أعجابهم حين مروا بالجامع الكبير بذمار، وشاهدوا روعة بنائه، من الأحجار اليمنية، والذي قيل أنه بني في عهد الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

تتميز اليمن بتنوع جغرافي، حيث البحر والسهل والجبل.

تميز بان أثره في شخصية الإنسان اليمني الذي شكل من ذلك التنوع حضارة خالدة، قل أن يكون لها نظير في التاريخ، من خلال ما شهدته تلك الحضارات من تقدم في البناء، والصناعة، والفنون، والأخلاق، فالمجتمعات العاملة تتميز أخلاقها عن غيرها بلا شك، وفي التاريخ نجد الكثير من الأمم

التي تميزت اجتماعيًا كترجمة للحضارة التي سادتها في تلك الفترة، بعكس عصور الظلام التي سادت الكثير من البقع على هذه الأرض.

إن الحضارة اليمنية لم تنقل آثارها، ومقتنياتها إلى متاحف العالم فحسب، بل نقلت سموها الأخلاقي للعالم يوم أن كان أبا ذر الغفاري رضي الله عنه أول من نقل المصافحة باليد إلى العالم، كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه حين قال: لما جاء أهل اليمن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قد جاءكم أهل اليمن، وهم أول من جاء بالمصافحة**) رواه أبو داود بإسناد صحيح.**

إنها حضارة مكتملة من كل جوانبها فحق لها أن تسود، وأن تكون أمًا لكل الحضارات.

وصل الباص بهم قبل العصر إلى مأرب، فقرروا المكوث في أحد فنادقها، على أن يزووا الآثار التاريخية في اليوم التالي.

بلقيس..

ملكة لحضارة تُجبر من يزور اليمن أن يزور آثارها، فما قدمته في حكمها كنموذج للحكم اليمني القديم يكشف لنا تقدير الحاكم لشعبه، في عصور ساد فيه استعباد الحكام للشعوب، أو تملق الشعوب لأولئك الحكام في مشارق الأرض، ومغاربها، لخصتها الآية الثانية والثلاثين من سورة النمل: ﴿قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾.

بلقيس، تلك الملكة الحكيمة، المحترِمة لشعبها، الأنموذج لغيرها من ملوك اليمن، والتي استقبلت رسالة سليمان عليه السلام بحكمة، فلم تغتر بما تملك، بل كانت باحثة عن الحق، كيف لا وهي من سلالة شعب مَلَك رجاحة عقل، قبل سيادة دنيا، فقدمت عقلها في أمورها قبل قراراتها، فبقيت ملكة، وساد الشعب.

في اليوم التالي توجهوا إلى مشاهدة عرش بلقيس.

إلى لقاء ملكة هي حالة من حالات من سبقوها، ومن تلاها، من ملوك اليمن الذين حكموا الدنيا.

كل شيء كان يدعوا داليا للانبهار، عجيبة من العجائب تتجلى أمام عينيها.

لم يثيرها مشهد غيره في حياتها، إلا حينما شاهدت الآثار الفرعونية في مصر.

عرش بلقيس، ذلك العرش الذي كانت تقف عنده الدنيا لتحتكم له في أمورها، وجمع حوله اليمنيين ليأخذ برأيهم في مصير نصف الأرض.

كان شكلًا مربع الشكل، له قاعة مكشوفة، في وسطها بئر، وحوض ماء من الحجر، يصل إليه الماء بواسطة مَصَب من فم ثور.

تأملت داليا ذلك المنظر الساحر بروعته، ثم التفتت لترى قاعة محاطة بعدد من الجدران من الشمال، والغرب، والجنوب، وأمام الجدار الغربي كانت مجموعة من المقاعد المرمرية.

من تلك القاعة المكشوفة ترتسم لها قاعة؛ هي مجلس الشورى الذي أقامه ملوك اليمن مع شعوبهم، ليصور تلك الديموقراطية الرائعة التي أقامها أولئك الحكام لصناعة قراراتهم، والتي يضعون بعدها بصمتهم الأخيرة بلا استبداد.

زاد انبهار داليا، ثم توجهت بوجهها إلى ليلى وقالت: كان مجلس الشعب الوحيد في العالم في ذلك الوقت.

ليلى: نعم، لم يعرف التاريخ مجلسًا كهذا قبل ذلك، إن ملوك اليمن في ذلك التاريخ هم من كانوا يستشيرون شعوبهم في قرارات الأمة، إن هذه الحضارة قامت على الشورى، فلم تكن حضارة جبروتية، استعبادية أبدًا.

إن قصر الحكم في اليمن كان يعلم بأن الحضارة الحقيقية ليست في بناء الآثار وحسب، بل في تخليد قيمة الإنسان.

أخذت داليا تتأمل، وتنتقل ببصرها إلى اثنتي عشرة درجة تؤدي إلى خمسة أعمدة، والتي كانت ستة قبل ذلك، أحدها مكسور، ذات تيجان مزخرفة بالمكعبات، ويحيط بكل تلك العجائب سور من اللبن له أبراج.

لقد كان إبداعًا لم ترى مثله، في البناء، دل على أن اليمن شهدت حضارة قل أن تجد لها مثيل التاريخ.

وعرفت كيف أن اليمن كانت موطن الإنسان الأول، وكيف أن حضارات العالم انطلقت منها.

قبل أن يغادروا مأرب توجهوا إلى سدها التاريخي، الذي حكت الدنيا عن عظمته.

داليا: كم عمر هذا السد يا ليلى؟

ليلى: ذكر عالم الآثار النمساوي إدورد جلازر؛ أن عهد البناء الأول للسد يعود إلى ما بين 750 و700 قبل الميلاد.

داليا: كيف تم بناء هذا السد العظيم؟

ليلى: يبلغ طول سد مأرب حوالي خمسمائة وسبعة وسبعون مترًا، وعرضه تسعمائة وخمسة عشر مترًا، وقد بني في الجهة التي تسيل منها السيول، فتمكن السد من حصر الماء، وزُود بفتحات لتسمح بقدر أكبر من التحكم بجهة المياه بعد أن تستقر في الحوض، ويعتبر سد مأرب من أرقى السدود هندسيًا عبر التاريخ، وعجيبة من عجائبه، فقد قام المهندسون بمعاينة طبيعة الأرض قبل إنشاء السد، ثم بنوا عليها المخطط الهندسي، وقد تم جلب حجارة السد من صخور الجبال، ونحتت بدقة عالية، ثم وضعت فوق بعضها البعض، وتم استخدام الجبس لربط الحجارة المنحوتة ببعضها، واستخدمت قضبان أسطوانية من النحاس والرصاص، يبلغ طول الواحدة منها ستة عشر مترًا، وقطرها حوالي أربع سنتمرات لتوضع في ثقوب الحجارة

فتصبح كالمسمار، فيتم دمجها بصخرة مطابقة لها، وذلك ليتمكن من الثبات أمام خطر الزلازل والسيول العنيفة، والتي يمكن أن يتعرض لها السد بسبب ظروف الطقس.

لقد حقق ذلك السد اكتفاءً لليمنيين، فالماء الناتج عن السد القديم كان يكفيهم للزراعة، وإطعام مواشيهم.

داليا: وكيف انهار السد بعد ذلك؟

ليلى: لقد بقي السد صامدًا يؤدي عمله حتى الربع الثالث من القرن السادس الميلادي، حين تعرض لعدة تصدعات، وفي آواخر القرن السادس الميلادي كانت نهاية عمل السد، إنها آية من آيات الله، ثم تفرق اليمنيين من حوله بعد ذلك وانتشروا في أصقاع الدنيا.

ثم اكملت ليلى ضاحكة: إنكِ الآن تجدين اليمنيين في كل مدن العالم بسبب قصة انهيار السد، إن اليمنيين انتشروا في العالم وعمروا الكون، ففي كل بلد تجدين لهم بصمة منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم، ولعلها إرادة الله لهم، وللعالم.

داليا: لكنني أرى الآن بأن حال السد قد تحسن.

ليلى: نعم، في العصر الحديث كانت هنالك جهود لإعادة السد كما ترين الآن.

بعد رحلة جميلة استمرت يوم وليلة عادت داليا مع ليلى وداود إلى تعز، بعد ان استمتعوا بما شاهدوه في مأرب.

لقد كانت رحلة خالدة في ذاكرتها بما شاهدته من أمور لم تتوقع أن تراها عن العصور القديمة.

كانت تظن قبل زيارة مصر واليمن؛ بأن التطور هو شيء مرتبط بهذا العصر، ولم تكن تعلم بأن الزمن القديم صنع أعاجيب، قد يعجز العالم المعاصر عن الإتيان بها، وكيف أنه ارتبط بسمو أخلاقي، كيف لا والأخلاق هي الدليل الحقيقي لكل تطور.

بدأت داليا بعد عودتها من مأرب في البحث عن المخطوطات التاريخية في اليمن، لتكشف أكثر عن أسرار اليمن المدفونة.

بدأت داليا بالمرور على المحلات التي تعرض المخطوطات اليمنية النادرة.

استغربت أن بعضها مازال في أيدي الناس، ولم يتم حفظه في المتاحف الوطنية.

أخذت تسأل ليلى:

كيف لهذا الإرث التاريخي أن يكون بين أيدي الناس؟

لماذا هو في الدكاكين، لا المتاحف؟

أين جهود وزارة الثقافة هنا؟

اين دور الجامعات، والهيئات؟

ضككت ليلى بسخرية وقالت لها:

هنا حتى الجن تحتفظ بجزء من هذا التاريخ.

لا تتعجبي يا داليا، هنالك أماكن يحرسها الجان في اليمن، وفيها الكثير من الأسرار التاريخية المدفونة.

داليا: هل أنت صادقة يا ليلى؟ أم أنك تسخرين؟

ليلى: بل صادقة، هنالك الكثير من الأسرار التي مازالت مدفونة ولم تكتشف بعد، أماكن لا نستطيع الاقتراب منها، أو

أننا نعجز عن فك أسرارها، أو معرفة أماكنها، وأخرى لأننا انشغلنا بظروف الحياة، أو أنها رحمة الله لنا ألا تُكتشف هذه الآن، فالكثير من الآثار قد تم تهريبها إلى الخارج.

داليا: تهريبها إلى لخارج!

ليلى: نعم، قد يبدوا غريبًا ذلك الأمر، لكنه يحدث على كل حال في كثير من بلدان العالم، وتستغله بعض الدول لصناعة حضارة مزيفة لها من هذه المسروقات، وبعضها يُكتفي بعرضها في متاحفه على أنها آثار يمنية، لجلب السياح، وتنشيط السياحة هناك.

إن أول خروج للآثار اليمنية يا داليا؛ كان حين أخرج الجن عرش بلقيس، وذهبوا به إلى سليمان عليه السلام، ليريه إلى بلقيس حين حضرت إليه، وترى مدى قوة سليمان وجنوده في نقله، ثم أعادوه إلى مكانه في اليمن، لقد كان الجن أكثر نزاهة هنا من البشر في الحفاظ على آثار بلادهم.

داليا: قرأت ياليلى بأن المستشرق الألماني غيرد بوين، والذي عمل لثلاث سنوات كخبيرًا متطوعًا في مجال المخطوطات اليمنية، قد جمع نحو مليون مخطوطة كانت متناثرة في

المكتبات، والمراكز، والمساجد، وبين الأفراد داخل اليمن وخارجه.

ليلى: في هذا دلالة على حجم الإرث التاريخي لليمن، فهذا عالم واحد جمع كل تلك المخطوطات، ولذلك لابد وأن يكون دور وزارة الثقافة هنا كبيرًا، إن بلدانًا تاريخها الثقافي لا يكاد يذكر مقارنة بتاريخنا، ورغم ذلك لديها اهتمام أكبر بتاريخها، بل أنها أصبحت تملك من المزارات السياحية الشي الكثير.

أخذت داليا تتأمل في كلام ليلى، وفي ما شاهدته من آثار في مأرب، وفكرت في إنشاء متحف شخصي لها في المحلات التي في أسفل عمارتهم، لتعرض من خلاله تاريخ اليمن العريق من مخطوطات، وتحف نادرة.

لا تدري لم فكرت في ذلك!

كيف لإسرائيلية أن تنشئ متحفًا في بلد آخر.

أن تهتم بثقافة أخرى.

هل لأن الدم اليمني مازال يجري في جسدها؟

أليست يمنية على كل حال؟

ماذا عن دمها الإسرائيلي؟

هل يجري في جسدها دم إسرائيلي؟

وهل يوجد دم إسرائيلي؟

من أي تربة تَكَون ذلك الدم؟

بدأت تفكر وتسأل نفسها:

هل أنا فعلًا انتمي لإسرائيل؟

منذ متى؟

أجدادي يمنيين.

وأجداد أصدقائي هناك من إيرلندا، وبريطانيا، وأوكرانيا، ومصر، وغير ذلك.

ماذا لو عاد كل منا إلى بلده الأصلي، لمن ستبقى تلك الأرض؟

هل كانت خلاءً قبل حضورنا؟

هل يمكن أن تصمد الشجرة دون أن يكون لها جذور؟

هل فعًلا سنبني لنا وطنًا هنالك؟

كيف سنبنيه دون تاريخ؟

بالتأكيد لابد لذلك وأن يزول مهما طال به الزمن.

لم بدأت أفكر في ذلك؟

هل تخليت عن قضيتي؟

ألست إسرائيلية تساهم في صناعة تاريخ بلدها؟

هل مكوثي هنا في اليمن سينسيني أهدافي التي أعيش من أجلها؟

أخذت تفكر، وفي نفس الوقت أخذت تخرج صباحًا في كل يوم إلى سوق باب موسى للتجول فيه والبحث عن الأشياء النادرة.

قامت داليا بشراء الكثير من التحف النادرة، والتي تعود لما قبل الميلاد، كما استطاعت الحصول على كتاب نادر، ومخطوطة تعود إلى القرن الثامن الميلادي.

مستجدات كثيرة بدأت تطرأ على الساحة السياسية في اليمن، وكذلك في البلدان العربية، وهي أحداث الربيع العربي، والذي غير في الكثير من الواجهات السياسية في تلك الدول.

بدأت المظاهرات الطلابية تنتشر في شوارع تعز، والعدد يزداد من يوم لآخر.

يسقط النظام..

عبارات رددها الشارع العربي كثيرًا بعد معاناة الفقر، والحاجة، وبعد المواقف العربية المخزية تجاه قضايا الأمة المصيرية.

الحرية السياسية للشعب مكفولة في اليمن، فلم يكن هنالك مشكلة يعانيها الشعب من هذا الجانب قبل هبوب رياح الربيع العربي، لكن المطالبة بحياة أفضل، وبعودة اليمن إلى مكانه الطبيعي، أدت إلى خروج تلك المظاهرات.

كانت تعز من المدن التي لعبت دورًا أساسيًا في هذه المظاهرات، إلى جانب صنعاء، وبقية المدن اليمنية، من خلال شباب جامعتها، ومن خلال كل فئات المجتمع شبابًا، وفتيات، صغارًا، وكبار.

كان لانتصار الثورات في تونس، ومصر، دورًا كبيرًا في تحريك مسار الثورة في اليمن، ليصور لنا بأننا أمة واحدة، يؤثر بعضها على الآخر، وأننا أمة يجمعها مصير واحد.

انتهت الثورة، وتطلع اليمنيون لمستقبل أفضل، بدأت نتائجه تظهر، لكن الكثير من المتغيرات السياسية، والتدخلات الخارجية، قتلت مخرجات الثورة، وقادت البلاد إلى نفق مجهول، بدأت بوادره تظهر على السطح.

ما يميز اليمنيين هو أنهم لا يقتلون تفاصيل حياتهم، يمارسونها تحت أي ظرف.

يتألمون، لكنهم لا يتوقفوا، فالحياة لابد أن تستمر، مهما كانت جروحهم تنزف، ومهما كان حجم المعاناة.

بعد أن هدأت الأمور في البلاد قليلًا، لكنها لم تنتهي، فكرت داليا في أن تخرج مرة أخرى إلى خارج تعز، لكن هذه المرة أرادت الذهاب إلى صنعاء العاصمة.

أخبرت ليلى برغبتها، ووافقت على الذهاب معها نهاية الأسبوع، ورافقتها مع شقيقها الأصغر داود.

في صباح يوم الخميس خرجت ليلى مبكرًا من الجامعة، حتى يسعفهم الوقت بالذهاب إلى صنعاء مرورًا بزبيد، فقد اقترحت على داليا المرور بزبيد لمشاهدة بعض معالمها الأثرية.

تحركوا جميعًا باتجاه زبيد، واستمتعوا كعادتهم بالطرق المؤدية إليها، فقد كانت رحلة جميلة بالسيارة، عاشتها داليا مع ليلى وداود، لكن ما عكر مسار رحلتهم، هو الطريق الطويل الذي سارت عليه السيارة، فالكثير من الطرق التي تربط تعز بالمدن الأخرى مازالت مغلقة بسبب الحرب، ولم يكن أمامهم إلا طرقًا وعرة، للوصول إلى وجهتهم.

معاناة يعيشها الكثير من المسافرين من وإلى تعز، حتى أصبح البعض منهم يودع أهله، فربما قد لا يعود، لكن ما يهون عليهم في سفرهم هو استمتاعهم بالمناظر التي مازالت تحتفظ بجمالها رغم كل شيء.

وأخيرًا، وبعد معاناة، وصلوا زبيد في صباح اليوم التالي، وبعد أن تناولوا طعام إفطارهم عند الحاجة فاطمة، وهي امرأة تهامية تقوم بإعداد الطعام في منزلها للعابرين في حوش كبير، هو جزء من بيتها.

سمك موفا (تنور)، مع الكبان (يصنع من اللوبيا البيضاء المطحونة، واللبن، والثوم، والفلفل) بزيت السمسم، والكَدِر (نوع من أنواع الخبز اليمني المشهور في تهامة)، والجبن، كان طعامًا شهيًا، أعاد لهم روحهم.

داليا: كم أعجبتني طيبة أهل زبيد، وكرمهم.

ليلى: أهلها طيبون، وزبيد، هو اسم ينتمي إلى اللغة السامية القديمة، وهنالك أسماء أخرى كثيرة تعود إلى هذه اللغة في تهامة، كحيس، والخوخة، وغيرها، وقد سكنها العبرانيون قديمًا، والذي هاجر منهم إلى الشام، وهنالك نقوش تعود الى أوائل ما قبل الميلاد وجدت في الشام لملوك آرميين هاجروا من اليمن، منهم الملك ركب، وزبيد، وبنمو، ومما جاء في تلك النقوش: (هذا تمثال يوليس اورليس، زبيد بن مقيمو بن زبيدا عشتور بيدا الذي أقامه له تجار القافلة القادمة معه من ألجاشيا لأنه أحسن لهم)، وهذه دلالة على ارتباط الأرمينيين باليمنيين،

كما أن اللهجة التهامية مميزة في نطقها، من خلال إبدال لام التعريف ميمًا، وهي ما تسمي أَمْ الحميرية، وهي من اللهجات العربية الفصحى، وتعود إلى مملكة حِمير، وقد تحدث بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ليلى: في كل مرة اكتشف شيئًا جديدًا، يؤكد لي عراقة هذه البلد، وإرثها العتيق، وتأثيرها على ما حولها من حضارات.

بعد أن انتهوا من طعام إفطارهم مروا بغرب وادي زبيد، وشاهدوا أحجار يصل طولها ما بين اثنا عشر إلى أربعة عشر قدمًا، ووزنها ما بين عشرين إلى ثلاثين طنًا، موزعة على الأرض بشكل هندسي رائع ودقيق، أشارت ليلى إلى أنها تعود إلى آثار لمعابد قديمة، ومساكن للبشر، تم بناؤها في نهاية العصر الحجري، حوالي 1200 سنة قبل الميلاد، وهي آثار مرتبطة بالفلك، وحركة النجوم، والكواكب، وعلاقة الشمس بالأرض.

داليا: ولماذا هي مهملة في العراء بهذا الشكل؟

ليلى: قامت الهيئة العامة للآثار اليمنية بتسجيل المنطقة كمنطقة أثرية، وكذلك فعلت المنظمات الدولية، إلا أنه لم يتم فحصها بشكل دقيق، وفي مطلع التسعينات، وبالتحديد في عام 1992م

حضرت بعثة كندية، وغادرت، وهي كما تشاهدين الآن مهملة بهذا الشكل، رغم أهميتها وقيمتها التاريخية، وهي بحاجة إلى جهود، لكن وكما تعلمين ظروف الحرب الآن حالت دون ذلك.

بعد العصر مباشرة تحركوا جميعًا نحو صنعاء، والتي وصلوها في وقت متأخر من الليل، فباتوا ليلتهم في فندق بالقرب من باب اليمن.

في تلك الليلة لم تتذوق داليا طعم النوم، حيث أنها انكبت على البحث في بعض المراجع التي تتحدث عن قصر غمدان، بعد أن قرأت عنه في أحد الكتب.

في صباح اليوم التالي أرادت ليلى إيقاظ داليا ليتناولوا طعام الإفطار، والتوجه بعدها إلى المتحف الوطني.

ليلى: قومي يا كسولة، الساعة الآن اقتربت من التاسعة، وأنتِ مازلتِ نائمة.

داليا: دعيني أنام عشر دقائق أخرى، فلم أنم البارحة جيدًا.

ليلى: خذي عشرين دقيقة أخرى، هي كافية لأن أنتهي أنا وداود من تناول طعام الإفطار الذي أحضره لنا، لقد جاء بلحسة (أكلة يمنية مكونة من البيض الممزوج بالطماطم والخضار والمغطى

بالجبن السائل)، ورشوش (نوع من أنواع الخبز)، وسحاوق (سلطة مكونة من الطماطم والجبن) من مخبازة مجاورة.

استيقظت داليا مباشرة من سريرها، وتوجهت إلى طاولة الطعام مرددة: أنتِ فتاة لا تقدرين الصداقة، ولا القرابة، فكيف تتركين فتاة مثلي جائعة.

ليلى: ما الذي يجعلكِ تسهرين لوقت متأخر؟

داليا: لقد كنت أبحث عن مراجع تتحدث عن قصر غمدان التاريخي بصنعاء، فأحببت أن أتعرف عليه، وأعرف عن أسراره.

ليلى: جميل، وماذا عرفتِ عنه؟

داليا (بعد أن قامت بتشغيل جهاز الحاسب، وفتح صفحة ويكيبيديا): قصر غمدان هو عبارة عن قصر وقلعة في اليمن، شرق صنعاء، وهو أحد أقدم القلاع المعروفة في الجزيرة العربية، وقد اختلفت الروايات في من بناه، فهنالك رواية تقول، كما جاء في كتاب الإكليل للمؤرخ والعالم الموسوعي الحسن بن أحمد الهمداني: (بأن سام بن نوح فكر في السكن في أرض الشمال، فأقبل طالعاً من الجنوب يرتاد أطيب البلاد حتى صار

إلى الإقليم الأول فوجد اليمن أطيبه مسكنًا، وارتاد اليمن، فوجد حقل صنعاء أطيبها، فأقام قصر غمدان، وحفر بئره المشهورة، وراح يبنيه دون حساب لطوله أو عدد أدواره، وفي يوم من الأيام راح يتفقده من الأعلى، فلما نظر ظله بالغداة قد بلغ سفح جبل عيبان كف عن البناء)، ورواية أخرى تذكر بأن الشرح يحضب الأول، والذي حكم اليمن ما بين عامي 120م إلى 130م تقريبًا، هو من بناه، وظل باقياً إلى أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه في أوائل القرن الأول للهجرة، حوالي القرن السابع الميلادي، بعد أن صمد ما يقارب 520 سنة، ويعد من أهم إنجازات مملكة سبأ الحضارية، والعمرانية، في القرن الثاني الميلادي، ومن أشهر من سكن هذا القصر الملك سيف بن ذي يزن، وهو آخر الملوك الذين سكنوه، وقد زاره فيه وفد قريش برئاسة عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من ضمن ذلك الوفد سادة قريش: أمية بن عبد شمس، وأسد بن عبد العزى، وعبد الله بن جدعان، ويحكى أنه قد أعيد بناؤه في العهد الحميري على يد عمرو ابن أبي شرح بن يحصب، والذي ورد ذكره في النقوش الحميرية القديمة.

ليلى: وهل عرفتِ شيئًا عن ملحقاته؟

داليا: هل تريدين مني أن أنشغل بالقراءة، وتنشغلين بالطعام؟ أخبريني أنتِ، هيا أخبريني، وتوقفي عن الأكل.

ليلى (وهي تضحك): من آثاره الجامع الكبير، ويعد من أقدم مساجد اليمن، والذي أنشأه الصحابي وبر بن يحنس الخزاعي سنة 6 للهجرة، حوالي 627 للميلاد، بموضع بستان باذان، وتمت توسعته عبر عدة قرون، وله اثنا عشر بابًا، ويحيط بفنائه الأوسط مائة وثلاثة وثمانين عمودًا، على أحد أبوابه نقوش بالخط المسند، ويحتوي على مكتبتين تضمان الآلاف من نفائس المخطوطات.

داليا: ولماذا لم يصمد بعد ذلك؟

ليلى: هنالك رواية تقول بأن الأحباش هم من خربوه، وكذلك فعلوا مع قصر سلحين، وبَيْنون خلال الحرب الحميرية الحبشية، والتي كانت بدايتها عام 523م، وانتهت مطلع 530م، بمقتل يوسف أسار يثأر الحميري، واحتلال اليمن، بينما تشير روايات أخرى إلى ذكر قصر غمدان في عهد الملك سيف بن ذي يزن، ووفود العرب عليه، وهو على عرش غمدان، وهذا يدل على أن قصر غمدان تم أصلاحه بعد الغزو الحبشي لليمن، وقد جمع الجاحظ بين الروايتين بقوله: (فلما ملكت الحبشة اليمن

أخربته، إلا بقايا هدمها عثمان بن عفان رضي الله عنه في الإسلام).

داليا: وهل يوجد الآن شيء من قصر غمدان؟

ليلى: هنالك مطالبات لإعادة القصر لعهده السابق، لما يمثله من أهمية تاريخية في الحضارة اليمنية العتيقة.

داليا: إنها نهاية مؤسفة لتاريخ عريق، إن اليمن يملك من التاريخ ما لا يملكه غيره، لكن للأسف تم إهمال الكثير من ذلك التاريخ حتى اندثر، وإنكم تتحملون نتائج ذلك التقصير دون غيركم، فهي حضارتكم أنتم، لكنكم تنتظرون من يأتي ليفتش لكم عن تلك الحضارة.

بعد أن انتهوا من تناول طعام الإفطار توجهوا لزيارة المتحف الوطني.

أعجبت داليا بباب اليمن، وبصنعاء القديمة، وكذلك بشوارع صنعاء، وتطورها العمراني، خارج باب اليمن.

يقع المتحف الوطني في أمانة العاصمة، بالقرب من ميدان التحرير، في دار يسمى دار الشكر، وهو أحد القصور الإمامية، ويقع بالقرب من باب السباح، بجوار جامع قبة

المتوكل، والذي يعود تاريخ إنشائه إلى عام 1971م، ثم خضع المتحف في عام 2000م لأعمال ترميم وصيانة لمختلف المباني التاريخية، ثم تم افتتاحه مرة أخرى في 28 مايو 2006م، بعد استكمال عمليات الترميم، وإضافة الكثير من الآثار النادرة.

أعجبت داليا بما شاهدته في المتحف من آثار يمنية قديمة تم جمعها من عدة مواقع أثرية، من مناطق متنوعة في اليمن، وتجولت بين أقسامه، حيث زارت قسم ما قبل الإسلام، والذي يتكون من سبع قاعات، هي: قاعة ذمار علي يهبر، وقاعة الخط المسند، وقاعة مملكة معين، وقاعة مملكة حضرموت، وقاعة مملكة سبأ، وقاعة مملكة حمير، وقاعة هدايا رئيس الجمهورية.

في هذا القسم شاهدت داليا، مع ليلى وداود، الكثير من العجائب التاريخية.

وقد شدها اسم قاعة ذمار علي يهبر، وسألت ليلى عن من يكون؟

ليلى: هو الملك ذمار علي يهبر بن ياسر يهصدق، من أشهر ملوك سبأ، وذو ريدان، وفي زمنه رمم سد مأرب، وسكت

العملة، وقد كان أول ظهور لاسم ذمار علي يهبر في نقش مؤرخ بشهر القيظ سنة 247 حميري، الموافق 137م.

داليا: إنه تاريخ قديم جدًا.

ليلى: بالتأكيد، إن الحضارة اليمنية هي أول حضارة شهدتها الدنيا، فقد بدأت مع بداية الإنسان على هذه الأرض.

داليا: وماذا عن خط المسند؟

ليلى: هو نظام كتابة أبجدي قديم، للغات سامية منقرضة، وقد تفرع هذا الخط عن الأبجدية الكنعانية السينائية الأولية، وقد انتشر طوال الألفية الأولى قبل الميلاد، في مناطق شاسعة من حوران إلى رملة السبعتين، ومن غرب العراق إلى دلتا مصر. وينقسم إلى مسند عربي جنوبي، والذي انتشر جنوب الجزيرة العربية حيث كُتبت به اللغات العربية الجنوبية القديمة بلهجاتها السبئية، والقتبانية، والحضرمية، والمعينية، والأحسائية، وقد اشتقت منه الحروف المستعملة في إثيوبيا، وإريتريا، ولذلك نجدها تستخدم الآن في اللغة الأمهرية، وأقدم خط مسند عثر عليه كان في كسرات فخارية، تم اكتشافها في منطقة ريبون في حضرموت، وقدر تاريخها بأواخر الألفية الثانية قبل الميلاد.

بينما القسم الآخر؛ وهو المسند العربي الشمالي، والذي نشأ من أربعة فروع كُتبت بها نقوش اللغة العربية الشمالية، وهي اللحيانية، والديدانيّة، في شمال الجزيرة العربية، والثموديّة، والصفائية، في الشام، وشمال الجزيرة العربية، والأحسائية في شرق الجزيرة العربية، وكتابات الفاو في وادي الدواسر إلى الشمال الشرقي من نجران، وهي محل خلافٍ بين الباحثين في تصنيف لغتها، وخطوطها، وتاريخها.

بعد ذلك واصلوا جولتهم، وانتقلوا إلى قسم العصر الإسلامي، والذي يحتوي كذلك على سبع قاعات، هي: قاعة المخطوطات، وقاعة الأدوات النحاسية، وقاعة الجوامع، وقاعة المسكوكات، وقاعة الإنارة، وقاعة الأسلحة، وقاعة كسوة الكعبة، والتي بها أول كسوة للكعبة المشرفة.

تعجبت داليا من وجود قاعة خاصة بكسوة الكعبة، رغم أن الكعبة في مكة.

ليلى: لقد اهتم ملوك اليمن على مر التاريخ بالبيت الحرام، وكسوة الكعبة المشرفة، حيث أن تبع الحميري ملك اليمن هو أول من كساها في التاريخ، بعد أن زار مكة، ودخلها دخول الطائفين، وهو أول من صنع للكعبة بابًا، وجعل له مفتاح،

واستمر في كسوة الكعبة، وكان يكسيها بالخصف، وهي ثياب غلاظ، ثم كساها المعافى، ثم كساها الملاء والوصائل، وكساها خلفاؤه من بعده بالجلد والقباطي، وغيرهم، حتى آلت الأمور إلى قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي صلى الله عليه وسلم، ثم كساها عليه الصلاة والسلام بعد الإسلام في العام التاسع من الهجرة.

داليا: جميل.

ليلى: هيا بنا الآن قبل أن يأخذنا الوقت.

بعد ذلك خرجت داليا من المتحف منبهرة بما شاهدته، لكنها رغم كل ذلك كانت منزعجة.

ليلى: أراكِ منزعجة يا داليا؟

داليا: أعتقد بأن ما شاهدته هنا غير كافي.

ليلى: لم؟

داليا: هل يعقل بأن ذلك هو كل شيء؟ هل يعقل بأن المتحف الرئيس في اليمن صاحبة أقدم حضارة إنسانية أن يكون بهذا الشكل؟ وهذه الكمية من التحف والآثار؟

ليلى: صحيح يا داليا، إن هنالك تقصير كما ذكرت لكَ سابقًا، وإننا بحاجة إلى أن نُظهر تاريخنا على الأرض كما هو الحال في الحضارة المصرية، إن المتاحف غير كافية، وحضارة بحجم اليمن بحاجة أكثر إلى أن يزورها السائح في أماكنها بعد أن تجد الاهتمام الكافي، وقد شاهدتي كيف أننا عندما زرنا عرش بلقيس لم يكن هنالك اهتمامًا كافيًا به، فأصابه ما أصابه من تشققات.

صحيح لابد وأن يتم حماية الآثار من الممارسات التي تخالف دين البلد، فحماية الدين أمر لابد منه، لكن أغلب الآثار هنا ليس لها معتقد ديني بالتأكيد، فلماذا تُهمل؟ إن إهمال الآثار هو قتل للتاريخ، وجريمة بحق الأرض.

بعد كل هذه الزيارات تجولوا في صنعاء القديمة وأسواقها، وأعجبت داليا بكل شيء فيها، من دكاكين، وبيوت، وغير ذلك، وتذكرت بيت جدها الذي ضمت تفاصيله جزءًا مما شاهدته هنا.

كانت جولة رائعة، لكن أصوات منبهات السيارات في صنعاء، هو ما عكر عليهم صفوهم، وكذلك بعض المباني السكنية التي

تجد الإهمال من ملاكها، لتنقل صورة سيئة عن العاصمة، بالإضافة إلى تلك المباني التي أصيبت بسبب الحرب.

داليا: يبدو بأن هذا الجامع قديم جدًا؟

ليلى: هذا هو الجامع الكبير في صنعاء، وقد أمر ببنائه النبي محمد صلى الله عليه وسلم، في السنة السادسة من الهجرة، وقام الخليفة الوليد بن عبدالملك بتوسعته، وفي العام 2006م عثر علماء الآثار على سراديب وأبنية قديمة، واثنا عشر مصحفًا، يعود أحدها للصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والذي كتبه بخط يده، بالإضافة إلى أكثر من أربعة آلاف مخطوطة، كلها محفوظة الآن في مكتبة الجامع، وبعض الآثار التي مازالت تحت الدراسة.

داليا: إن صنعاء القديمة وحدها كنز مليء بالآثار العتيقة، وأن تصاميم مبانيها الرائع يسر كل من نظر إليه.

ليلى: بالتأكيد، ففي القرن الأول للميلاد أصبحت عاصمة لمملكة سبأ بعد استعادة الهمدانيين للعرش من الحميريين، وفي القرن السابع للميلاد أصبحت صنعاء مركزًا مهمًا لنشر الإسلام، ولذلك تلاحظين كثرة مساجدها، وقد صنفت اليونيسكو صنعاء القديمة ضمن مواقع التراث العالمي.

داليا: وماذا تعني كلمة صنعاء بالمناسبة؟

ليلى: صنعاء تعني الحصن، المدينة المحصنة، وقد ورد ذكرها في نصوص المسند (صنعو)، وكان لها سبعة أبواب، لم يتبقى منها الآن إلا باب اليمن، الذي نحن بجواره الآن، والذي سنتناول العصير الطازج على حسابكِ، من ذلك المحل القريب منه.

داليا: لقد شربت العصير في أماكن كثيرة، لكنني لم أجد أجمل من الذي يصنعه اليمنيون هنا، له مذاق رائع، خاصة وأنه يتم إعداده من المزارع اليمنية الكثيرة المنتشرة بين سهولها وجبالها.

مع غروب شمس يوم السبت، عادت داليا مع ليلى وداود إلى تعز، وفي صباح يوم الإثنين أرادت داليا أن ترافق ليلى إلى جامعة تعز لتتعرف على اهتمام الجامعة بالتاريخ، ولعلها تجد فيها ما يدعم أبحاثها في هذا الجانب.

جامعة تعز..

حين تكون المسؤولية، يكون استشعارها.

جامعة بحجم وطن، وصرح من صروح العلم في تعز، تلك المدينة التي أخرجت لأمتها شخصيات بارزة بسبب مدارسها التي تُشعرك بأنها جامعات تُنافس في ميدان أرادت أن تكون لها الريادة فيه، فكيف بجامعة المدينة الرئيسية.

تلك الجامعة العريقة في اليمن، رغم أنها تأسست في العام 1993م، إلا أنه كان لها دورًا وطنيًا بارزًا في خدمة الكثير من قضايا الوطن، هي، وأخواتها من جامعات اليمن المرموقة، في كافة المحافظات.

تضم جامعة تعز ثمان كليات، وسبعة عشر مركزًا علميًا، ويدرس بها أكثر من ثلاثين ألف طالب وطالبة.

رغم أنها تمتلك إمكانات أقل من التي تمتلكها مثيلاتها من جامعات العالم، إلا أنه عند دخولك للجامعة تجد الحركة الدؤوبة فيها، والحرص الكبير من طلابها، ومن كادرها التعليمي على فعل المستحيل، من أجل صناعة مستقبل أكثر إشراقًا لهم، ولأمتهم.

إنه الأمل الذي يعيشون من أجله لغد سيعيد لهم ما فقدوه.

أمل وجدته داليا على وجوه طلابها، وطالباتها، وهي تهم بدخول الجامعة، ولمحته على وجوه أساتذتها رغم الحزن البادي عليهم.

ذلك الحزن الذي تعاهدوا على إزالته من وجوه من حولهم، وعندها سيزول من وجوههم بالتأكيد، فما حزنهم إلا على حال مجتمعهم، ومخرجات حرب أثرت على الإنسان اليمني.

دخلت داليا إلى مكتب ليلى في كلية الآداب، قسم التاريخ والعلوم السياسية.

ألقت عليها التحية:

كيف حالك يا دكتورة ليلى، بالتأكيد ستنتظرني وجبة إفطار شهية، أشاركِكِ بها، تليق بصاحبة هذا المنصب، في هذا المكتب المليئ بالحيوية.

ليلى: لو كنت أعلم بحضوركِ لطلبت منك إحضار الروتي (الخبز الأبيض الطويل، والذي أصبح قصيرًا بسبب غلاء الأسعار) معك، من أجل أن نعمل منه سندوتشات.

داليا: لماذا؟ أنتم أساتذة جامعة مرموقة، وبالتأكيد لكم امتيازات هنا، وتُقدم لكم الوجبات المجانية.

ليلى: لنا أكثر من ستة أشهر لم نستلم رواتبنا، وأنتِ تتحدثين عن امتيازات!

داليا: هل أنتِ جادة فيما تقولين؟

ليلى: نعم، كل موظفي الحكومة على هذا الحال، وفي كل المحافظات بمختلف حكوماتها القائمة، تمضي أشهر دون أن يحصلوا على راتب واحد، ثم بعد عدة أشهر يأتي راتب، أو راتبين، ووقتها تكون ديوننا وصلت إلى ما يعادل أربعة رواتب، لاندري حينها؛ هل نسدد ديوننا، أم نأتي بمصاريف البيت.

هل تصدقين بأن هنالك من له أكثر من عام، ولم يستلم راتبه.

داليا: إذًا؛ لماذا تستمرون في عملكم؟ الإنسان يعمل من أجل المال.

ليلى: إننا نعيش على أمل أن يأتي المال، هذا أفضل من المكوث بلا عمل، إننا نستدين بوظيفتنا، بسببها يقرضوننا،

فراتب الوظيفة أمل يعيشه معنا أصحاب البقالات، والغاز، ومالك السكن، وغيرهم.

هم يبيعون لنا بالدين لأننا موظفون، والبلد كلهم عاطلون عن العمل، لو لم يبيعوا لنا بالدين ستبور بضاعتهم، فنحن على الأقل الخيار الأفضل لهم.

إننا مدينون للحكومات برواتبنا، ونحن مديونون لأصحاب الدكاكين، والمنازل، وغيرهم، هي دائرة ديون تحيط بنا فتخنقها جميعًا، وبلدنا خنقه العالم عمدًا بديون تأتي إليه على هيئة مساعدات، فتذهب إلى غير ما نريد، لأنها جاءت بالطريقة التي لا تريدها البلد، فخنقته من جهة أخرى.

إن الكثير من الموظفين يغادرون مكاتبهم مبكرًا للعمل في أي شيء، لتعويض تأخر رواتبهم.

هل تعرفين يا داليا، بأن هنالك أساتذة جامعات، وأطباء يخرجون ليعملوا في سوق القات، أو على موتور لتوصيل الزبائن، أو على عربة خضار، العمل في أي مجال ليس عيبًا، لكن العيب على أولئك المسؤولين الذين يقبضون رواتبهم بالعملة الصعبة، ويطلبون من المواطن أن يضحي لأن الوطن يمر بظروف حرجة.

تلك الظروف التي سببها هم، كان الأجدر بأن يلتفوا حول الوطن، ويستثمروا طاقاته لاستعادة الوطن، وبنائه، لا أن يكونوا أدوات رضيت بدور المتفرج.

لقد أغرقوا البلد في الأزمات، ووقفوا يتأملون غرقها بسترات نجاة، وهبها لهم من استخدمهم، وظنوا بأنها ستنجيهم دائمًا، لكنهم جهلوا بأن لكل غدٍ شمس، وبأن التاريخ لن يرحم.

إن أسوء منا حالًا هم أولئك الذين لا يعملون، يخرجون إلى السوق يبحثون عن عمل؛ فلا يجدون، ويبحثون عن من يقرضهم؛ فيرفضونهم، إننا نرجو من الله زوال الغمة حتى تقوم بلادنا من جديد.

الحمدلله أن لدينا عمارة، ومحل فضيات، خففا عنا الكثير يا داليا، وجعلانا في وضع أفضل بكثير، ولو كنا مسؤولين في البلد، لكنا الآن نبحث في المعاجم عن معنى كلمة ديون.

داليا: إنها مأساة حقيقية، ومؤلمة، إنكم وبرغم كل ذلك تمارسون حياتكم، أنتم أقوياء جدًا يا ليلى، لكن لا يعني ذلك أنكِ لن تأتين لي بالشاي.

ليلى: شاي عدني مع فطائر، سأطلبها لي ولكِ.

داليا: إلى حين ذلك أريد منكِ بعض البحوث حول الآثار اليمنية، لقد جئت من أجلها.

أخرجت ليلى لها مجموعة من البحوث حول الآثار اليمنية.

شمل أحد البحوث على الكثير من الفصول، والأبواب، التي تحدثت عن الآثار، وفصلته تفصيلًا وافيًا.

بحث آخر تحدث عن تهريب الآثار إلى خارج البلاد، وصُدمت داليا حين شاهدت صورًا، وأرقامًا، لمقتنيات تم تهريبها عن طريق مجهولين إلى خارج اليمن، وبحسها الصحفي الاستقصائي وجدت نفسها أمام جريمة منظمة تقودها جهات خارجية، بالتعاون مع منتفعين في الداخل، لتهريب الآثار اليمنية، وحملت على عاتقها مهمة استكشاف تلك الجريمة المنظمة.

التقت داليا في نفس اليوم، وبالتنسيق مع الدكتورة ليلى بالمسؤولين في الجامعة، والذين وضعوا كافة إمكانات الجامعة بيد داليا، لمساعدتها في مهمتها، فضربت الجامعة أروع الأمثلة في استشعارها بدورها الوطني، والتاريخي، دون اكتراث لأي ضرر قد يترتب نتيجة لذلك.

إنها مهمة شاقة، محفوفة بالمخاطر التي ستواجهينها بلا شك، لكنه واجب وطني لحماية ثرواتنا، وتاريخنا العريق.

هكذا قال لها أساتذة الجامعة، وهم يسلمونها بعض الأبحاث التي تتحدث عن تهريب الآثار اليمنية إلى الخارج.

حرصت داليا على التجول في أسواق التحف في تعز، كل صباح.

استمرت في النزول إلى بعض محلات التحف، والأثريات فيها، من أجل عمل دراسة عن المخطوطات، والآثار النادرة التي تضمها، وتضمنت دراستها بما قد شاهدته في مأرب، وصنعاء، وزبيد، أثناء زيارتها لهم.

كانت تخرج يوميًا إلى الأسواق، وتعود لتقرأ في البحوث التي حصلت عليها من جامعة تعز، ثم تبحث في بعض المخطوطات التاريخية.

كانت تعرف حجم الصعاب التي ستواجهها، من بداية البحث عن المعلومة، إلى أن تمسك بالخيوط التي ستساعدها لاكتشاف الحقائق.

كانت تعرف كذلك حجم الأخطار التي تحيط بها، خاصة وأن تهريب الآثار من الجرائم المنظمة التي تقف خلفها الكثير من الكيانات، وليس مجرد تخطيط عصابات من أجل المال.

كانت تعرف ذلك، وغير ذلك، فالسنة التي قضتها في دراسة هذه المخطوطات كشف لها الكثير من الملفات، لكن إصرارها،

وتمرسها في مثل هذه القضايا، واستشعارها بمسؤوليتها، قادها للمواصلة.

أرادت داليا التوجه إلى عدن، لزيارة بعض الأماكن التاريخية بها، والاستمتاع بنسيم المحيط، خاصة مع الظروف التي أصبحت تعيشها مدينة تعز، فالسنوات التي تلت الثورة عانت فيها الكثير.

أخبرت ليلى عن ذلك، والتي رحبت بالذهاب معها.

لا تنسوا بأن تجلبوا لنا بخور، واخضرين، وعشار عدني.

كلمات رددتها أكثر من امرأة إلى ليلى وداليا، قبل ذهابهم إلى عدن.

تتميز عدن بتمازج فريد من الثقافات المتعددة، بسبب الاحتلال البريطاني، وبسبب موقعها المميز، من خلال مينائها الذي اكتسب أهمية استراتيجية، إذ يمثل واجهة مهمة لليمن، وللجزيرة العربية، وما يليها من بلاد الشام، وأوروبا، وبطيبة أهلها.

كذلك تتميز عدن بأجود أنواع البخور، والاخضرين (كريم لزج، عبارة عن خليط من العطور، والبخور، والعود، يستخدم للشعر)، ولا ننسى المطبخ العدني المميز، بأجود أنواع الطعام، وكذلك الشاي العدني، والكثير مما تتميز به هذه المدينة الجميلة، التي يلتقي فيها الجبل بالبحر.

مدينة عانت كثيرًا من الاحتلال البريطاني الذي فرقها عن إخوتها، ليستفرد بها، ويستغل موقعها المهم، لكنها مالبثت أن استعادت حريتها، ثم عادت إلى حضن الوحدة اليمنية.

الاقتراب من الوصول إلى عدن لا يعني نهاية الرحلة بالنسبة للقادم من المدن الشمالية، فنقاط التفتيش التي يصادفها المسافر، والتي تتقصده، معاناة أخرى، وكأن القادم من الشمال سيدخل دولة أخرى، لا محافظة هي جزء من وطن يفترض أن يجمعنا جميعًا.

وأخيرًا.. وصلت داليا مع ليلى وداود إلى عدن، بعد عدة نقاط، كانت ستعود بهم إلى تعز.

عند وصولهم إلى عدن؛ تجولوا في شوارعها، ثم قضوا ليلتهم في أحد فنادقها المطلة على المحيط.

ما أجمل أن تظفر بليلة تقضيها في عدن، تنام بجوار نافذة مطلة على ذلك المحيط الذي يبادلك الحديث من خلال هدير أمواجه، وكأنه هنا يقص على داليا ما جرى لهذه المدينة من تخريب أثناء الحرب الحالية، ليطلب منها سبقًا صحفيًا عن تلك المعاناة.

سبقًا صحفيًا يزيد من تلك القضايا التي تتحملها داليا، وهكذا هي مهنة الصحافة والكتابة.

لم تكن الكتابة يومًا شغفًا يبحث من خلالها الكاتب على إشباع شهوة الكتابة لديه، ليستمتع بتصفيق المعجبين، بل هي رسالة وجهاد، يُظهر من خلالها الكاتب ما يريد مجتمعه أن يتفوه به، هو صوت المقهورين، وأمل الحالمين، وجلاد الطغاة.

لا يكتب الكاتب ما يريد أن يكتبه، ينام ليلته، ولا يدري ما هي القضية التي سيتبناها غدًا، هذا إذا لم يُعتقل، فمستجدات

الأحداث هي من ترسم له خارطة كتاباته، وأمانه مرهون بمقدار حبر قلمه، وهكذا كانت داليا.

في صباح اليوم التالي، وبعد أن تناولوا طعام الإفطار العدني الجميل؛ مع الشاي العدني، توجهوا لمشاهدة صهاريج عدن.

سارت بهم السيارة إلى مدينة كريتر، وتحديداً إلى وادي الطويلة، والتي تعتبر الآن من أشهر الأحياء العدنية، وأقدمها في كريتر، والتي تقع أسفل مصبات هضبة عدن المرتفعة بحوالي ثمانمائة قدم عن سطح البحر، ليتمتعوا بمشاهدة تلك الصهاريج، والتي أرادت داليا زيارتها بالذات عند ذهابها إلى عدن.

كم هو مهيب هذا المنظر.

قالتها داليا لليلى وهي تنظر إلى الصهاريج.

ليلى: صهاريج عدن تعد من أبرز المعالم التاريخية، والسياحية التي يحرص كل سائح قادم إلى مدينة عدن على زيارتها، لدلالتها على عمق الحضارة اليمنية القديمة.

داليا: إن هنالك لوحة مثبتة تقول (إن هذه الخزانات في وادي الطويلة مجهول تاريخها).

ليلى: ذكرت الدراسات بأن الحِمْيَريين هم من شيدوا هذه الصهاريج، لكن توقيت بنائها اختلف في تحديده، والراجح بأن بداية بنائها كان في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، في عصر مملكة سبأ.

داليا: بالتأكيد أنها تخزن كمية كبيرة من المياه.

ليلى: تخزن صهاريج عدن قرابة أكثر من ثلاثة عشر مليونًا وستمائة ألف لتر من الماء، والتي تأخذ شكلاً شبيهًا بالدائرة، حيث يقع المصب عند رأس وادي الطويلة، وتتصل الصهاريج ببعضها البعض على شكل سلسلة، وقد شيدت في مضيق يبلغ طوله سبعمائة وخمسون قدمًا تقريبًا، ويحيط بها جبل شمسان بشكل دائري باستثناء منفذ يتصل بمدينة كريتر.

داليا: إذًا هذه الصهاريج تخدم عدن خدمة كبيرة.

ليلى: بنيت الصهاريج بغرض معالجة مشكلة قلة المياه العذبة في هذه المدينة، من خلال إقامة منشآت مائية لحفظ مياه الأمطار، كما أنها تحمي عدن من الفيضانات الموسمية، بتلقفها للسيول القادمة من أعالي الهضبة، ولتخفيف اندفاعاتها، ولتغذية الآبار الجوفية عبر فتحات خاصة صممت بشكل دائري في قاع كل صهريج، وقدرت عدد الصهاريج بحوالي خمسة وخمسون

صهريجًا، معظمها مطمور تحت الأرض، أو أصابه الخراب، والظاهر أمامنا الآن لا يزيد على ثمانية عشر صهريجًا فقط، تستوعب نحو عشرين مليون جالون.

داليا: عشرون مليون جالون!

ليلى: لاحظي يا داليا بأني أحدثكِ عن تاريخ قديم جدًا جدًا، وبهذه التقنية الهندسية النادرة.

داليا: إنني في كل مرة أزور فيها مدينة يمنية أجد العجب العجاب من تلك الحضارة البديعة، وأسأل نفسي:

ماذا لو استمرت الحضارة اليمنية إلى اليوم بنفس قوتها؟

اعتقد بأن اليمنيين كانوا سيملكون الأرض بكل ما فيها.

أخذت داليا تفكر بعد عودتها إلى الفندق مع ليلى وداود فيما شاهدته.

إن ثروات اليمن، وتاريخها مازال مدفونًا في أعماقها، رغم الكم الهائل من المسروقات التي تم سرقتها، لذلك فاليمن بحاجة إلى كف يد السارقين من إخراج خيراتها لخارج البلاد، وإلى عمل المخلصين لاستخراج ثرواتها من باطن الأرض.

قالتها داليا لليلى قبل خلودهما للنوم، وهي تفكر فيما شاهدته في مدن اليمن المختلفة.

في اليوم التالي من إقامتهم في عدن أرادت داليا التسوق مع ليلى لشراء البخور، وبعض العطورات العدنية.

اقترحت ليلى بشراء الاخضرين، والبخور، من عند السيدة صفية، وهي امرأة معرفة بجودة بخورها، الذي تصنعه، وتبيعه من منزلها في التواهي.

بدؤوا يومهم بالتجول في أحياء عدن وأسواقها، وكم أعجبتهم تلك المناظر التي شاهدوها، رغم التغيرات الكبيرة التي طرأت عليها.

كانت هنالك الكثير من المباني التي تشير إلى اللمسة البريطانية، رغم قدمها، وعدم تجديدها.

لقد صنع البريطانيون أثناء احتلالهم لليمن الكثير من الأمور التي ما كانت لتكون إلا خدمة لوكلائها هنا، لذلك كانت تلك المباني، ولم يكن الإنسان.

نعم الإنسان التي سعت بريطانيا إلى تغييره، ورسم خارطة أخرى في تكوينه، غير تلك الخارطة التي أرادت أن تصنعها على الأرض لتفرق بين شمال البلاد وجنوبها، لكنها لم تنجح رغم كل تلك السنوات التي مرت.

مهما طال الاحتلال، وحاول تغيير أوراق الأشجار فإن الجذور باقية، وستنبت أوراقًا أخرى بعد أي خريف تتساقط فيه تلك الأوراق، فالجذور لا تموت، والأوراق تتغير.

لقد سقطت الأوراق، ونبتت مكانها أخرى من عروق تلك الجذور، وبقيت آثار ذلك الاحتلال، أصوات غربان في سماء عدن، جلبتها تلك الأيام، ولم تغادر سماءها مع آخر جندي، بل بقيت لتُذكر أهلها، وزائريها بتلك السنوات، وكأنها تحذرهم من بيع بلادهم لأي محتل آخر، جاء بأي ثوب.

بعد جولة في أسواق عدن توجهوا إلى منزل السيدة صفية، في إحدى حارات التواهي.

حارة شعبية بسيطة يجمع أهلها الحب.

جميلة هي تلك الأحياء البسيطة، ببساطتها، وحب سكانها لبعضهم، وكأنهم أسرة واحدة، لكن الجمال لزائريها الذين يريدون تذكر الماضي، أما أهلها فيعيشون معاناة خلفتها الحرب، وتعدد الفصائل، فكان الفقر والبطالة عنوان تقرأ تفاصيله على جدران تلك الأحياء، ومن خلال جلوس فلذات أكبادها على الأرصفة، يتبادلون همومهم، ومعاناتهم، التي يعيشونها كل يوم.

في إحدى زوايا ذلك الحي، والذي يحكي قصة من قصص الناس هنا، كانت تسكن السيدة صفية، في منزلها البسيط، تصنع فيه أنواعًا مختلفةً من البخور، لتعول أبنائها، وأمها المريضة، بعد أن فقدت زوجها، والذي لا تعلم أين هو الآن.

نعم، فقد خرج ذات يوم كما أخبرها للذهاب إلى السوق، ليبحث له عن عمل، لكنه لم يعد!

قالوا لها بأنهم أخذوه معهم إلى الحرب، وقُتل هناك.

وقال لها آخرون بأنه قد تم أسره.

وهناك من شاهدوه سائرًا، لا يعرفون وجهته.

كان صيادًا، يملك دكانًا لبيع الأسماك، يأتيه الناس من كل مكان، لسمعته الجيدة.

مسالمًا، يتجنب الدخول مع أي فريق، ويرى الحرب بأنها البعبع الذي شيب المدينة، بل وكل الجمهورية.

كان يتمنى أن تعود الحياة لسابق عهدها، يعمل في دكانه، ويسعد أسرته، ويستمتع بزيارة شقيقته في يافع، وشقيقته الأخرى في شبوة، وابن خالته في الحديدة، محملًا لهم بالهدايا.

بعد أن منعوا الصيادين من النزول إلى البحر؛ بحث عن عمل آخر، ولم يجد.

تبًا لهم، كيف لهم بعد أن دمروا المدن، وزرعوها بالفصائل، أن يحرموا أبناءها من قوت يومهم؟

تاه في هذه الحياة، أو تاهت به الدنيا.

كان دكانه يحفظ له كرامته أمام أسرته، وأصبح ذلك الضعيف الذي يجلس معهم في منزله، بانتظار من يعطف عليه وعلى أطفاله.

كانت دموعه وهو يستمع لطلبات أطفاله شاهدة عليه، ولولا امتلاكه لمنزله لناموا جميعًا بلا مأوى.

إنه قهر الرجال.

كانت اليمن من أغنى بلاد المنطقة بثروتها السمكية الهائلة، وها هم الآن يمنعوا الصيد، ليثبتوا بأنهم قصدوا الإنسان فيها، بتدميره، إنهم تجار حروب، وخدام أجندة، دمروا ذلك الضعيف، كما فعلوا مع الكثيرين هنا، وها هي زوجته صفية تبيع البخور، لتستطيع رعاية أبنائها الخمسة، ووالدتها

المريضة، وعينها على باب منزلها، تنتظر دخول زوجها ليُذهب عنها هذا الحِمل.

إن كل علبة بخور تصنعها، وتبيعها، لتُقدم بعد ذلك كهدايا هنا وهنالك، خالطتها دموع هذه المسكينة.

عادت داليا مع ليلى وداود إلى تعز، بعد أن قضوا إجازة نهاية الأسبوع في عدن.

عادت محملة بقصة صاحبة البخور، لتضيفها إلى تحقيقها الجديد عن الحرب في اليمن، وعن الفرق المتناحرة فيها.

وعن ذلك الثمن الذي دفعه شعب، في كافة محافظاتها، بقصص مختلفة.

خرجت داليا بعد ذهاب ليلى إلى الجامعة في اليوم التالي، بعد عودتها من عدن، إلى محلات التحف والآثار، في سوق باب موسى، وأخذت بالتجول بين محلاته.

نظرت!

إنه هو!

نعم هو!

لقد وجدت شخصًا تعرفه، خرج من محل جدها.

ذهبت مباشرة إلى المحل.

داليا: كيف حالك يا إبراهيم؟

إبراهيم: مرحبًا داليا، تتجولين كعادتكِ في السوق.

داليا: من هذا الشخص الذي خرج من عندك الآن؟

إبراهيم: إنه زبون، يأتيني هنا من وقت لآخر، عرفني عليه التاجر إسماعيل، هو يمني هاجر والداه في السبعينات إلى بريطانيا، وعاد منذ فترة قريبة، إنه يريد شراء الكثير من التحف والمخطوطات، ويسأل كثيرًا عن تاريخ اليمن، يبدوا أنه معجب جدًا بالحضارة اليمنية.

داليا: لماذا يريد شراء الكثير من التحف والمخطوطات؟ وعن ماذا يسأل؟

إبراهيم: لا أعلم، لكنه يسأل كثيرًا عن باب موسى، وتاريخ نشأته، ومعلومات عنه.

داليا: وهل باب موسى بهذه الأهمية؟

إبراهيم: باب موسى تم تشيده في عهد الدولة الرسولية، والتي كانت تتخذ من تعز عاصمة لها، خلال الفترة من 1229 وحتى 1454 للميلاد، وكانت فترة ذهبية شهدث فيها اليمن تقدمًا في مجالات عدة، وسُمي باب موسى بهذا الاسم نسبة إلى الشيخ موسى بن أحمد، والذي تم دفنه في مقبرة الأجينات، بجانب قبر الفقيه نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي، وجده هو أحمد بن موسى بن عمران الشافعي، ويتكون الباب من نوبتين، وفي وسطه بوابة خشبية ضخمة، كما يوجد في أعلى الباب غُرف، يقال بأنها كانت سكنًا للجنود، وهي نفس المرافق في الباب الكبير بتعز، وباب اليمن بصنعاء، وغيرها من الأبواب المتواجدة في باقي المدن اليمنية.

داليا: إذًا لماذا يسأل عنه باستمرار؟

إبراهيم: لا أعلم، هل هنالك شيء يا داليا؟

داليا: لا، شكرًا لك، سأذهب إلى الجامعة الآن.

ذهبت داليا مباشرة إلى الجامعة، وأخذت تفكر:

لماذا يسأل موشيه عن باب موسى؟

ولماذا جاء إلى اليمن؟

ألم يقل بأنه سيذهب إلى لندن في دورة عسكرية؟!

لماذا هو هنا إذًا؟

وماذا يريد؟

هل يعلم بوجودي هنا؟

أخذت تفكر إلى أن وصلت الجامعة.

توجهت مباشرة إلى مكتبة الجامعة، وأخذت تقلب بين الكتب.

ما سر اهتمام موشيه بباب موسى؟ ولماذا جاء إلى اليمن؟

لابد بأن هنالك لغزًا؛ وينبغي عليَّ أن أعرف سره.

هل من الممكن أنه جاء ليتأكد من حقيقة أصوله؟

لا أعتقد، فهو متعصب لجذوره الوهمية.

إذًا ما الأمر؟

بالتأكيد أن الموساد هو من أرسل موشيه إلى هنا، سأحاول أن أعرف تاريخ حضوره إلى هنا، وعندها سيتضح لي صحة شكوكي.

وبينما هي تفكر وتقلب بين الكتب؛ دخلت عليها ليلى:

ليلى: ما هو الأمر الذي يجعلكِ تحضرين إلى الجامعة دون أن تأتي إلى مكتبي أولًا؟

داليا: سأخبركِ عن سر خطير لا يعرفه أحد.

ليلى: ما هو؟

داليا: وجدت موشيه هنا في تعز، وجدته يتجول في سوق باب موسى، وكان خارجًا من دكان جدنا.

ليلى: لم أفهم!

داليا: موشيه هو ضابط في الموساد الإسرائيلي، أعرفه منذ أن كان في إسرائيل، حيث أن والده شمعون كان يعمل مع أبي في جهاز الموساد، وكانت جدتي سارة تشك في أن شمعون هو ابنها شعيب الذي أخبروها بموته عندما كان طفلًا، وقد قصصت عليكِ هذه القصة قبل الآن، أخبرنا منذ فترة بذهابه

إلى دورة تدريبية في لندن، لكنني الآن أجده هنا، ولا أعلم ما الذي جاء به، لقد اخبرني إبراهيم بأنه تردد أكثر من مرة على محله، ويسأله كثيرًا عن تاريخ اليمن، وتحديدًا عن باب موسى.

ليلى: ماذكرتيه هو أمر خطير جدًا، لا ينبغي السكوت عنه.

داليا: نعم، لكن لابد أولًا من أن نعرف كل شيء عن سبب حضوره.

ليلى: وكيف سنعرف؟

داليا: بداية لا أعلم إن كان يعرف شيئًا عن وجودي هنا أم لا، لكن لابد لنا من أن نعرف أولًا عن وقت حضوره، والأماكن التي يتردد عليها، ونوع المعلومات التي يبحث عنها.

ليلى: وكيف سنعرف كل ذلك؟

داليا: لا تنسي يا ليلى بأني صحفية استقصائية، وهذه مهمتي.

استطاعت داليا من خلال متابعة تردد موشيه على باب موسى من مراقبته، وتحديد الفندق الذي يقيم فيه، ثم استأذنت من إبراهيم في أنها ستغادر المنزل، لتسكن في فندق لمدة أسبوع من أجل أبحاثها الخاصة، يتطلب وجودها في فندق حتى تنهيه.

كان هدفها هو أن تكون قريبة من موظفي الفندق لتحصل على معلومات تفيدها عن وقت مجيئ موشيه إلى الفندق، واستطاعت أن تعرف بأن موعد وصوله إلى تعز كان قبل وصولها بشهرين، تحت اسم (صفوان) وهذا يؤكد لها بأن موشيه لم يكن يعلم؛ لا هو ولا الموساد بأمر وجودها في تعز.

شخصية جديدة حازت على اهتمامها، وهو التاجر إسماعيل، والذي يتواصل بشكل يومي مع موشيه.

يا ترى من هو التاجر إسماعيل؟

ولماذا يتواصل معه موشيه بشكل دقيق، ويومي؟

كان لابد لها من مراقبة إسماعيل، ومعرفة تفاصيل مهمة عنه، لذلك كان لا بد من ذهابها إلى حيث يسكن في الأشرفية.

الأشرفية.. حي من أحياء تعز التاريخية.

حي ينحدر من سفح جبل صبر.

ذلك الجبل الذي تعانق قمته سحاب السماء، وتتشبث جذوره بعمق أرض اليمن السعيدة، كحال أبناء ذلك الجبل، وجبال اليمن، في ربوع وطن عشقوا أرضه، فتمسكوا بترابه، وزرعوها خضرة تسر الناظرين، وحبًا يأسر العاشقين.

ذلك الحي الذي يضم جامع الأشرفية، ذلك الجامع الذي يعد جامعة من جامعات العلم الذي نهل منه طلاب العلم علوم دينهم الذي يعتزون بالانتماء له.

ذلك الجامع الذي بناه الملك الأشرف أبو العباس إسماعيل بن الأفضل، سنة 696 للهجرة، وبنى غيره من الجوامع، كجامع المملاح الكائن في إحدى قرى زبيد، كدلالة على اهتمامه بأهل العلم.

جامع تعلوه مئذنتان ارتفاعهما خمسة وثلاثون مترًا، تنبثق منهما مئذنة أخرى، تقعان في مؤخرة المسجد على حافتيه، بينهما عدد من القباب الصغيرة، لتظهر الفن المعماري اليمني العتيق.

على حافة سقف المسجد الخارجي شرفات تحيط به من كل جانب، وفي الجدار الخارجي الغربي له أربع نوافذ كبيرة، وله باب عتيق الهيئة، مصنوع من الخشب.

إنه إبداع اليمني الذي صنع كل تلك التفاصيل المعقدة بجمالها، وروعة حي عاصرت أزقته العتيقة الكثير من تفاصيل ذلك اليمني، وهو يخوض غمار هذه الحياة.

في نهاية الشارع الممتد من جامع الأشرفية يسكن التاجر إسماعيل، في بناية اشتراها يوم أن جاء إلى هذا الحي شابًا قبل عشرين عامًا.

شخصية من أصول يهودية، تحب المال، ولديها استعداد للتنازل عن أي شيء مقابل أن يحصل على المزيد منه، فالمال في نظره هو المستقبل الضامن للإنسان عيشة كريمة، يستطيع أن ينتقل به إلى حيث الأمان في أي مكان من هذا العالم، فكان من السهل تجنيده من قبل الموساد، فقد تعرف عليه الضابط إيزاك في إحدى سفرياته إلى لندن، ورأى أنه من المناسب أن يجنده لصالحه، فأغدق عليه المال والهدايا، وقربه منه، واختار له أن يبقى في تعز، دون أن يُشعر أحدًا بحقيقته.

إنه الإنسان عندما يبيع مبادءه بثمن بخس.

عندما يظن بأنه من خلال ذلك عرف مصلحته جيدًا، وضمن مستقبله، ونسي بأن بعض الظن خيانة.

بل أحيانًا قد يستخدمك العدو دون أن يُشعرك.

يغدق عليك بما تحب، ويُعطيك مكانة عالية عنده.

يُشعرك بأنك حققت ذاتك من خلاله.

وأنك مهم بالنسبة له، وما أنت في حقيقتك إلا سيجارة سيدوس عليها حال الانتهاء منها، لأنه لن يثق بمن باع أرضًا انتمى إليها.

كانت مهمة التعرف على إسماعيل مهمة ليست بالمستحيلة على داليا، فجار إسماعيل هو قاسم سعيد، وزوجته صديقة لليلى، فكان من السهل لداليا أن تزور مع ليلى زوجة قاسم سعيد، والتي عرفتهما بعد ذلك على زوجة إسماعيل.

تكررت زيارة داليا وليلى للأشرفية، واستطاعت داليا أن تجمع المعلومات الكافية عن التاجر إسماعيل، فهو تاجر تحف معروف، يملك شركة للاستيراد والتصدير، ذات سمعة جيدة في القدرة على استيراد وتصدير الكثير من البضائع التي عجز

غيره عن إتمامها، بحكم علاقاته المتعددة مع تجار، وشخصيات سياسية.

وتأكدت كذلك بأن إسماعيل هو شخصية يهودية من خلال بعض تفاصيل منزله، وحسها الصحفي.

وتأكدت كذلك بأنه يشتبه بتهريبه للكثير من الآثار اليمنية إلى الخارج، من خلال بعض التحف الموجودة في منزله، وشركته المشبوهة بحسب ما ترى، وبما ذكرته زوجته ببراءتها بأنه يبيع منها في الخارج، ويهدي منها لأصدقائه هناك.

وتأكدت أكثر بأن إسماعيل على علاقة بالموساد، فقد شاهدت صورًا له في لندن من خلال ألبوم الصور الذي شاهدته مع زوجته، حيث أن له صورًا في أحد مطاعم لندن مع الضابط إيزاك، والذي تعرفه من خلال علاقته بوالدها.

كل تلك المعلومات أكدت لداليا بأن وجود موشيه في اليمن هي لمهمة استخباراتية مهمة، لكنها مازالت تجهل تفاصيل تلك المهمة.

وبأن التاجر إسماعيل يمد موشيه بما يريد من معلومات، وبأي خدمة قد يحتاج إليها هنا أثناء إقامته في اليمن.

كل هذه المعلومات جعلت داليا أمام قضية جديدة لاتقل خطورة عن قضاياها الأخرى.

خدمت ظروف الحرب موشيه كثيرًا في تهريب كمية أكبر من المتوقع من الآثار خارج اليمن، فاستطاع عن طريق إحدى الدول في إخراج تلك الآثار إليها، ثم نقل بعضها إلى داخل الأراضي المحتلة.

إن جلب الآثار اليمنية إلى أرضنا أمر مهم جدًا، نستطيع من خلال ذلك دفنها مجددًا هنا، ثم استخراجها مرة أخرى بعد سنوات، وربطها بأخرى نرسلها من هنا إلى اليمن، وندفنها هناك، ثم نرسل بعثاتنا العلمية لاستخراجها، وربط كل ذلك بجذور ندعي أنها لنا، إنه لأمر مهم جدًا أن نفعل ذلك في اليمن، ومصر، والعراق.

إننا بحاجة لأن نرسم تاريخنا من جديد، هذه مهمتك، ومهمة زملائك يا موشيه.

كلمات قالها الضابط إيزك لموشيه، قبل ذهابه إلى اليمن، والتي مازالت ترن في أذنيه كلما استطاع الحصول على تحفة نادرة، أو مخطوطة مهمة.

إنها مهمة لم يكن بمقدور موشيه تنفيذها لولا وجود الخونة، والطامعين في الحصول على المال، ولو على حساب مصلحة البلد.

ومن يفكر بمصلحة البلد في مثل هذه الظروف؟

لقد خانها المسؤولون؟ فكيف بنا نحن؟

كلمات يتداولها كل من اشترك في بيع آثار البلاد، سواء عرف خطر ما يقوم به، أو جهله.

إنها خيانة، ولو سميت بغير اسمها، أو وُجد لها مبرر.

فكرت داليا بالدخول إلى غرفة موشية في الفندق الذي يقيم به لمعرفة بعض التفاصيل، والكشف عن المستندات الموجودة لديه.

مستحيل يا داليا، هل جننتِ؟

داليا: وما المستحيل يا ليلى؟

ليلى: ستُكتَشَفِين لا محالة.

داليا (وهي تضحك): لقد فعلت ما هو أصعب من ذلك في إسرائيل من أجل الوصول إلى وثائق، لا تقلقي، فقط أريد داود أن يساعدني.

دخلت داليا وداود إلى الفندق، وتوجهت به إلى المطعم، وطلبت من داود أن يعطل عمل كاميرات المراقبة في الفندق؛ بعد أن أخبرته عن غرفة التحكم بها، عند خروج الموظف إلى دورة المياه.

بعد أن قام داود بتعطيل عمل الكاميرات؛ ذهبت داليا قبل الوقت المعتاد لخروج موشيه اليومي من الفندق وطرقت الباب، وغادرت بسرعة.

خرج موشيه ليبحث عن الطارق، وترك باب الغرفة مفتوحًا، فتسلل داود بغفلة إلى داخلها واختبأ.

عاد موشيه إلى غرفته، ثم ما لبث أن غادر الفندق بعد دقائق.

بعد أن تأكدت داليا من مغادرته للفندق؛ طرقت على داود الباب، ففتح لها مباشرة، ثم خرج لبهو الفندق يراقب عودة موشيه.

دخلت داليا إلى الغرفة.

غرفة بها صالون على طاولته جهاز كمبيوتر محمول، من حسن حظها أنه مازال على قيد التشغيل، ثم غرفة داخلية بها سرير، وخزانة ملابس، وشباك يطل على شارع جمال.

جلست ليلى في الصالة؛ وأخذت تتصفح جهاز الكمبيوتر.

بدأت بالصفحات التي دخل عليها موشيه من على شبكة الانترنت، ثم قامت بتفتيش بريده الإلكتروني؛ لتجد العُجاب!

هل حقًا ما أراه؟!

غير معقول!

هل يقوم موشيه بكل هذه الأعمال هنا؟

قامت مباشرة بتحميل الملفات، ونقلها إلى ذاكرة خارجية كانت بحوزتها، وخرجت.

خرجت داليا من الغرفة بسرعة، وتوجهت إلى بهو الفندق،

وطلبت من داود المغادرة معها بسرعة.

في المساء عاد موشيه إلى غرفته في الفندق، وشعر بأن هنالك من دخلها.

نادى أحد العاملين، وسأله إن كان أحد قد دخل الغرفة، فأجابه بالنفي.

نزل إلى بهو الفندق، وتحدث مع المسؤول، وطلب مشاهدة كاميرات المراقبة.

تفاجأ المسؤول بأنه تم تعطيل عمل الكاميرات، وأن آخر تسجيل لها كان في التاسعة صباحًا، وللأسف لم يتمكن من معرفة من قام بإغلاقها لأن غرفة التحكم لا توجد كاميرا موجهة ناحيتها، حيث أن الكاميرات زُرعت في بهو الفندق، ومدخله، والأدوار، دون المطبخ، وغرفة التحكم، ومكتب المسؤول.

وللأسف؛ فحركة الدخول والخروج كبيرة؛ وذلك لوجود مطعم داخلي يقوم بالبيع لمرتادي الفندق، ولأي يشخص من خارجه يرغب بتناول الطعام فيه.

سأل المسؤول موشيه أو كما يدعي (صفوان) إذ كان قد فقد شيئًا من غرفته، ويرغب بإحضار الشرطة، لكن موشيه تنازل عن كل ذلك، وطلب منهم الاهتمام أكثر، أو التهديد بمغادرته للفندق.

أخذ موشيه يفكر في الشخص الذي دخل إلى غرفته.

بالتأكيد ليس لصًا، فبعض النقود كانت ملقاه على الطاولة، وكذلك سلسلتي الذهبية، وهي كما هي في مكانها.

يا ترى ماذا يريد؟

هل هنالك من يعلم بسبب حضوري إلى هنا؟

هنالك سر، ولا بد لي من معرفته.

أخذ القلق يسيطر على موشيه، وأخذ يفكر بترتيب أوراقه من جديد.

هو لا يريد أن يفشل في مهمته.

هو يريد أن يثبت وجوده حتى تتم ترقيته في جهاز الموساد.

في هذه الأثناء كانت داليا في غرفتها أمام جهاز الكمبيوتر الخاص بها، لتقرأ الملفات التي أخذتها من جهاز موشيه.

تقرأ تلك الملفات وهي غير مصدقة لما تشاهده أمامها.

تهريب آثار إلى خارج اليمن، وإدخالها بسرية إلى دول أخرى.

تقارير دقيقة عن المجتمع، والحياة في اليمن.

تجنيد أفراد في بعض الدول للعمل على أجندة معدة مسبقًا.

معلومات حول باب موسى وإرثه التاريخي لليهود.

تهريب الذهب الخام من مديرية حجر.

جزيرة سقطرى، وأهميتها.

أخذت تقلب الملفات وهي غير مصدقة.

هل معقول بأن موشيه يعمل على كل هذه الملفات؟

ما مصلحته من تحقيق ذلك؟

هل يعمل لجهات خارجية؟

من هي الجهة التي يعمل لها؟

هل أجهزة المخابرات في بلدي لها أهداف بهذه القذارة! أم أنها تنفذ أجندة لجهات أخرى؟

لا أكاد أصدق!

لماذا كل ذلك؟

نحن نريد بناء وطن.

هل سنبني وطننا بهذه الأساليب؟

أكاد أجن.

أخذت تفكر في الطريقة التي ستتصرف بها.

في صباح اليوم التالي أخبرت ليلى بما حدث معها.

فكرتا في طريقة للتصرف، خاصة مع وجود أدلة ستفيدهما لتقديمها للجهات الأمنية، لكن داليا فضلت التريث قليلًا حتى تتأكد من بعض أمور، وأخذت تتساءل: هل باب موسى حقًا له إرث تاريخي متعلق باليهود؟

أطلقت ليلى ضحكتها ثم قالت: باب موسى تم تشيده في عهد الدولة الرسولية، والتي حكمت خلال الفترة من 1229 وحتى 1454 للميلاد، فكيف يكون لليهود إرث تاريخي فيه.

داليا: نعم، لقد قال لي إبراهيم ذلك، وهذا ما يجعلني استغرب حرص موشيه على البحث عن إرث تاريخي من خلاله.

ليلى: سأقول لك دون أن تغضبي مني، إن الصهاينة يريدون أن يصنعوا لهم إرثًا تاريخيًا بأي شكل، لذلك هم يحاولون الحصول على ذلك الإرث بأي طريقة، من خلال حضارات أخرى يحاولون احتلالها ثقافيًا، وادعاء ملكيتهم لذلك الإرث التاريخي، ولو تأملتِ في الكثير من الأمور التي يدعون ملكيتها لوجدتِ أنها من جهة هي إرث لثقافات أخرى، ومن جهة أخرى هي أمور بسيطة لكنها تعني لهم الكثير طالما هي موروثات ثقافية، لأن الإرث الثقافي هو دلالة على امتلاك الأرض، والإرث الثقافي هنا مرتبط بكل ما له علاقة بقيام المجتمع البشري.

داليا: أنا يهودية ولست صهيونية، وهنالك فرق، ثم أنا يا عزيزتي لا أغضب منكِ بأي حال، لكن لماذا باب موسى دون غيره؟

ليلى: لا أعلم.

داليا: ربما بسبب اسم موسى، فموسى هو النبي الذي بعثه الله لبني إسرائيل، ووجود اسمه على الباب يوحى بارتباط تاريخي

به، رغم أن باب موسى سُمي بهذا الاسم نسبة إلى الشيخ موسى بن أحمد كما ذكر لي إبراهيم.

ليلى: احتمال قوي، ولا تنسي أن اليمن مرتبطة بنبي الله سليمان عليه السلام، وقصته مع ملكة اليمن بلقيس، فلربما يوجد باليمن من الآثار ما يرون أحقيتهم لها.

داليا: لكن ألم يفكروا كيف سيواجهون الحقائق التاريخية؟

ليلى: لكل شيء مخرج، إنهم يبحثون عن أي شيء ليثبتوا من خلاله ملكيتهم، ولذلك وجدوا اسم موسى على الباب، وسيدعون إرثهم فيه، وأحقيتهم التاريخية على اليمن، كما سيفعلوا مع الكثير من الآثار على أنها هدايا سليمان عليه السلام إلى بلقيس، وأنهم أحق بها.

لقد استخدموا نفس الأسلوب في فلسطين، فادعوا ملكية كل شيء، حتى الأطعمة.

بعد مساء يوم جميل استمتعت فيه داليا مع ليلى عند زيارتهما لصديقة لهما في الجحملية، عادتا إلى المنزل.

كان الوقت متأخرًا، وأصحاب المحلات يوشكون على غلق دكاكينهم، وكعادة أحياء تعز التي أنهكتها الحرب لم تكن الإضاءة كافية في شوارعها.

عند مدخل أحد الأزقة كانت تقف بانتظار خلو المارة، وكأنها تريد أن تقدم على عملية لا يشعر بها أحد.

انتبهت داليا إلى تلك المرأة.

أشارت إلى ليلى بأن يذهبا جانبًا، ليعرفا عن أمر هذه المرأة التي شعرت بأن لا أحد في المكان.

بدأت تبحث بين أكواب الزبالة، لعلها تجد ضالتها.

عجيب أمر تلك المرأة، كيف لها أن تهمل شيئًا مهمًا، وترميه مع فضلات الطعام، ثم تعرض نفسها لهذا الموقف، وهي تبحث عنه بين أكوام النفايات.

ليلى: إن الثمين الذي تبحث عنه هنا يا داليا بحاجة إلى هذا الموقف، وهو ما سيسكت صياح طفل جائع في منزلها، جاءت لتبحث له عن ما يسد جوعه بين أكوام النفايات، فهنا لن يجبرها

أحد على دفع ما تبقى من طعامه، إنها الحرب التي أنهكتها، وأنهكت الكثيرين، فالأوضاع كما ترين تزداد سوءًا.

بكت داليا لحال تلك المرأة، ولعباءتها التي سترت جسدها، وتحملت عنها أذى الطريق، وكلام العابرين، ولنظراتها التي تخشى أن يراها من يعرفها، فتسترق الخطوات.

دليلها مصباح على جبهتها، حرصت على عدم انقطاع إضاءته أكثر من حرصها على مصابيح منزلها، فما قيمة المصابيح في بيت لا تُرى فيه حبة قمح.

داليا: لماذا أنتم هنا رغم كل ما أصابكم يا ليلى؟ لم لا تهاجروا؟ أرى كل يوم الكثير من القصص هنا، والظروف الاقتصادية المتعبة للكثيرين، لماذا تصرون على البقاء؟

ليلى: يمكن لبعضنا أن يهاجر، وأن يبحث عن فرصة أخرى في مكان آخر، لكن هل هذا هو كل شيء؟

لنا كثير من أقارب، ومعارف في بلاد الغربة، تأقلموا مع غربتهم، ونسوا بلادهم، منهم من عاد، وكأنه أصبح غريبًا عن بلده، يأتي بعد سنوات ليشتري مزرعة أو بيتًا، ويتركها عند أي

أحد من أقاربه، ويغادر مرة أخرى، ومنهم من زادته الغربة سوءًا، فتاه بين قوانين تلك البلدان التي لم ترأف لحاله.

تأتينا الآن الأخبار من أقارب لنا ومعارف في الغربة بأن الحال قد ضاق عليهم كثيرًا، وبأن القرارات هناك قد قضت على ما تبقى معهم من مال وأحلام، وأصبحوا يعيشون ليومهم، لا يحلمون للغد، هذا يحدث في البلدان التي نتحدث معها بلغة واحدة، ولو تأملتِ حالنا في بلاد الغرب التي هاجر كثير منا إليها، وحقق فيها ما يحلم به، وتم احترامه هناك، لرأيتِ بأنه من الصعب أن نندمج مع ثقافة أخرى، وإن منحونا جنسيتها، فنحن لنا عاداتنا وتقاليدنا، ومعتقداتنا.

نعم قد نهاجر لها لفترة، ونحقق الكثير، لكن يبقى أمر عودتنا هو القرار الذي لابد منه، لنا ولأولادنا.

نحن هنا على الأقل في أرضنا، نستطيع أن نعيش عليها، فلسنا مطالبين بشيء، ولا معرضين للطرد، إننا نعيش هنا بعاداتنا وتقاليدنا، بملامحنا اليمنية التي تعرفها هذه الأرض.

نعم، لكل منا مشكلاته، قد نمر بأزمات، نحن جزء من هذا العالم المليء بالتفاصيل المؤلمة، ونحن جزء من دورة الحياة

فيه، والتي تتبدل الأحوال فيها هنا تارة، وهناك تارة أخرى، بأمر الله.

كل ما يصيب أحد منا هنا قد مر بآخر، فنشعر به جميعًا.

نفهم معنى تجاعيد ارتسمت على جبهة أب يصارع من أجل لقمة عيش، وسر دمعة أم تألمت لألم صغار ليس لهم غيرها، فنسند بعضنا رغم آلمنا، بما نستطيع.

بيوتنا مفتوحة لبعضنا.

ما نملكه يشاركنا فيه غيرنا، هكذا عشنا، نتقاسم كل شيء بسعادة تعني لنا الكثير، ولن نشعر بها إلا هنا، قد يكون هذا نصيبنا اليوم، وهذا ألمنا، لكننا نعيش بأمل أن يتغير كل شيء في الغد.

بأمل حقيقي ننتظره، ونستطيع صناعته.

نعم نستطيع صناعته لأن الأرض أرضنا، لنا حق القرار عليها، مهما تكالبت علينا الظروف والأعداء، فلا بد أن نبقى هنا حتى نعيدها نحن، بكل تفاصيلها العتيقة، ولا نترك حق عودتها لغيرنا، لأننا لو خرجنا فلن نستطيع أن نعود، ولو تركنا حق عودتها لغيرنا سيرسمون لنا ما يريدون، كما هم يحاولون الآن.

وأنتِ يا داليا تشاهدين الآن، أنه ورغم كل شيء؛ الحياة مستمرة، والأسواق تكتض بالمتسوقين، ورغم قلة المال في أيدي الناس لكن هنالك قوة شرائية بسبب استمرار تداول ذلك الفتات من المال بين الناس في البيع والشراء، وأهل الخير في كل مكان، والناس تقرض بعضها رغم حاجتها، إنها بركة الأرض السعيدة.

داليا: برغم قسوة الحرب، وبرغم الدمار الذي أحدثته في بعض المناطق السكانية، وبرغم الظروف الاقتصادية، إلا أن اليمنيين مازالوا متمسكين بكل شيء جميل في هذه الحياة، بعادات وتقاليد، تعيشون مناسباتكم، وتضحكون، وهذا ما أثار استغرابي، فالحرب والفقر يولدان الجريمة، والأمثلة كثيرة حول العالم.

ليلى: إنه الوازع الديني، والعادات الأصيلة لدى اليمنيين، وقدرتهم عبر التاريخ على مواجهة التحديات التي تحيط بهم، إن اليمني ابن هذه الأرض، وأول من روضها، وبنى عليها، لذلك هو متمرس لكل تقلباتها، بحفظ الله له.

داليا: لكن التفرقة، والتحزبات التي أدت إلى مشكلات كثيرة، هنالك مطالبات بتقسيم البلد، وهذا أدى إلى تغلل الأعداء

واستغلال هذه النقطة لصالحهم من خلال السيطرة على بعض المناطق.

ليلى: نعم للأسف، وهذا سبب توقفنا عن حل مشكلاتنا الحالية.

تأثرت داليا كثيرًا بالأحداث.

بما شاهدته من حال المرأة في هذه الليلة، وبما تشاهده دائمًا، وبقصة زوج بائعة البخور، ونقاط التفتيش المتعددة، مما دعاها للكتابة عن كل ذلك، والدعوة إلى توحيد كلمة اليمنيين في مواجهة أعدائهم، والمحافظة على المكتسبات.

كانت تكتب عن كل ذلك بتجرد، وهذا ما عرضها لمخاطر أخرى.

نعم، مخاطر أخرى، فهنالك من لا يريدون الحديث عن توحيد الصف، ويريدون القضاء على أمل يعيد للبلاد روحها من جديد.

لم تنجح بريطانيا في القرن الماضي أثناء احتلالها لجنوب اليمن من تقسيم اليمن وحسب، بل نجحت في إقناع بعض المناطق بأنهم دولة مستقلة تمامًا عن بقية أجزاء البلاد، والآن يريدون هم وأعداء اليمن؛ إلى تقسيم البلاد لدويلات

لتزداد ضعفًا، وهكذا كانت مشاريعهم، في كل الوطن العربي، والإسلامي.

إنهم يرون في اليمن، وفي موقعها الاستراتيجي على البحر الأحمر، والمحيط الهندي، وبتاريخها العريق الخطر، والقوة الكبيرة التي تهدد مصالحهم، لقد نظروا إليها فقط من هذا الجانب، وتناسوا بأن تقدمها سيساهم معهم في استمرار خيرية الأرض، فاليمنيين يُشركون العالم معهم كل شيء جميل، وأينما يتواجدون في هذا العالم يساهمون في عمارته، دون النظر إلى ظروفهم، ودون التفكير فقط بمصالحهم، وتطوير بلدهم دون غيرها، ولم يكونوا يومًا أداة بطش على مر حضاراتهم المتعددة.

استطاع موشيه أن يشتري عمارة سكنية، تعتبر الأقرب إلى باب موسى، فقد نجح في إقناع مالكها ببيعها بعد أن دفع له مبلغًا مجزيًا.

كانت فكرة موشيه في شراء هذه العمارة هو القيام بحفريات ظاهرها إصلاحية، لاستكشاف آثار من الممكن أن تكون مدفونة تحت هذا الباب، أو أن يقوم بدفن ما يريد تحتها، وهو لن يستطيع القيام بهذه المهام إلا إذا قام بشراء هذه العمارة، والتي تعتبر الأقرب إلى الباب.

واستطاع كذلك أن يفتتح محلًا لبيع التحف في أسفل تلك العمارة.

(باب موسى لبيع وشراء التحف النادرة).

جذب داليا عنوان ذلك المحل الجديد المطل على باب موسى، فدخلته مباشرة.

محل كبير وواسع، وهو عبارة عن أربع فتحات لدكاكين عمارة بأكملها، فيه مجموعة من التحف النادرة، والفضيات، والهدايا.

هل يمكنني تقديم المساعدة لكِ؟

التفتت داليا إلى الرجل الذي يجلس خلف مكتبه لتجيبه، وما إن نظرت إليه حتى أصيبت بالدهشة!

نظرت إليه، ولم تستطع أن تجيبه!

تسمرت في مكانها، وهو ينظر إليها، وكأنها ليست غريبة عنه.

هل هنالك شي؟ هل تعرفينني؟

سألها، وهو يكاد يجزم في داخله بأنه قد شاهدها من قبل.

أجابت بكلمات متقطعة.

لا.. لا.. ثم خرجت بسرعة.

قام موشيه من مكانه، وأمر عامله في المحل بتتبع الفتاة.

خرجت داليا من محل موشيه، وتوجهت مباشرة إلى دكان إبراهيم.

دخلت، وسألته عن سر المحل الجديد.

أجابها بأنه لصفوان، وأنه افتتحه حديثًا، بعد أن قام بشراء العمارة السكنية التي تعلوه.

عادت داليا إلى منزلها، وهي تخشى من أن موشيه قد تعرف عليها، وعاد العامل إلى موشيه، وأخبره بأن الفتاة قد دخلت دكان إبراهيم.

غضب موشيه من عامله، وعاتبه لعدم انتظاره لها وتتبعه إلى أين ستذهب بعد ذلك.

عاد موشيه إلى كاميرات المراقبة والتقط صورة لوجهها.

ماذا لو أنني لم أخرج مباشرة من دكانه؟

ماذا لو تصرفتُ كأي زبونة، وخرجت بعد أن أكمل تأملي للمعروضات على الأقل؟

أخذت داليا تلوم نفسها لتسرعها في إصدار ردة فعل ربما ستتسبب في فضح أمرها.

حدثت تطورات جديدة في قضية اختفاء الأطفال، فقد حصلت الأسر على وعود من حكومة الكيان بالإسراع في إنهاء القضية.

كان لداليا دور كبير في ذلك، فمقالاتها، وتحقيقاتها الصحفية، ساهمت بشكل كبير في تحريك الرأي العام تجاه هذه القضية، وردة فعل الحكومة.

تدرك الأسر جيدًا بأن كل ردة فعل من الحكومة، ما هي إلا مسكنات لهم، لكنهم مازالوا يؤمنون بمؤسسات الدولة، وعدالتها تجاه القضية.

مازال أملهم قائمًا برؤية أطفالهم وقد كبروا، أو يتأكدوا بحقيقة وفاتهم، إنه أمل يعيشون عليه، رغم كل تلك السنين، فشوق الآباء لأبنائهم لا يعادله شوق، وتأكد وفاتهم ستريحهم، فليس من السهل على أي أب أو أم أن يتأكد من وجود أحد أبنائه على قيد الحياة، ولا يستطيع الوصول إليه، أو معرفة مصيره على الأقل.

في هذه الأثناء أرسل موشيه صورة داليا التي وثقها من كاميرا مراقبة المحل إلى الضابط إيزايك.

نظر إيزاك إلى الفتاة، ثم سأل موشيه عن سبب إرساله للصورة.

ذكر له موشيه عن قصة الفتاة، ومن أنه يشك في أمرها، فأخبره إيزاك بأنه سيرسل صورتها للبحث والتحري لمعرفة حقيقتها.

في صباح أحد الأيام تلقى موشيه اتصالًا من الضابط إيزاك.

موشيه: صباح الخير سيدي.

إيزاك: أريدك أن تبحث عن هذه الفتاة، وتحضرها إلى إسرائيل بأقصى سرعة.

موشيه: هل عرفتموها؟

إيزاك: إنها داليا يارون، الصحفية المعروفة، ابنة الضابط موسى الذي كان يعمل معنا في الموساد، سافرت مع أخيها آدم إلى مصر، ثم اختفت بعد ذلك، فقد عاد آدم دونها، ولم نعرف إلى أين اتجهت، لقد بحثنا عنها في مصر، ولم نصل إلى شيء.

موشيه: تذكرتها، لقد رأيتها عدة مرات في إسرائيل، إن والدي صديق مقرب من والدها، وآدم صديق مقرب مني، لقد تذكرتها الآن، أعرفها وتعرفني، لقد كبرت داليا، لم يخطر ببالي أنها هي.

إيزاك: لم أكن أرغب بسماع ذلك منك، أنت ضابط على قدر كبير من التركيز، وسرعة البديهة، لا أريد أخطاءً.

موشيه: تحت أمرك سيدي.

أخذ موشيه يربط بين داليا كصحفية استقصائية، وبين ما حدث له من تفتيش لجهاز حاسبه في داخل غرفته.

أخذ صورة داليا، وتوجه إلى مسؤول الفندق الذي سأله عنها، فأجاب بأنها كانت نزيلة قبل فترة لعدة أيام.

هنا تأكد موشيه من أن داليا هي من قامت بالدخول إلى غرفته، لكنه مازال يبحث عن الأسباب التي دعتها لذلك.

يا ترى؛ ما الذي يجعل من صحفية إسرائيلية تتبعني إلى اليمن؟

هل حقًا هي هنا من أجلي؟

ليس لدي سوابق لتتقصى عنها.

بل أن مهمتي هنا هي من أجل بلدي.

كيف عرفت بمكاني هنا، رغم أني لم أخبر أحد؟

أخذ موشيه بالبحث عن داليا، كان يراقب السوق وينتظر حضورها في أي وقت.

ومرت الأيام، وجاءت داليا.

كانت برفقة ليلى، وكانتا متجهتين إلى دكان إبراهيم، والذي كان في الجهة المقابلة لدكان موشيه.

ما إن همت داليا بالدخول إلى دكان إبراهيم حتى شاهدت موشيه متجهًا نحوها، فتراجعت مسرعة إلى الجهة الأخرى من الشارع، فتراجع موشيه لنفس الجهة ليلحق بها، لكنه لم ينتبه لسيارة كانت تسير بسرعة، فدهسته.

سقط موشيه مغشيًا عليه، ونقلته سيارة الإسعاف إلى المستشفى.

تبعه إبراهيم، والتاجر إسماعيل.

كانت حالته حرجة، وتتطلب تدخلًا جراحيًا عاجلًا حتى يستطيع أن يمشي على قدميه مرة أخرى.

علمت داليا بأن أمرها قد تم كشفه، فمعنى أن ضابط في جهاز الموساد يتتبعها؛ فإن وجودها هنا قد أصبح خطرًا عليها.

لابد أنه قد أبلغ الموساد بأمري، لابد لي من أن أتصرف بسرعة.

كان قرار مغادرة داليا لتعز أمر لابد منه، فوجودها هنا قد يشكل خطرًا عليها، لذا لابد لها من اتخاذ قرارها بالخروج، دون تأخير.

لكن هنالك أمر لابد لها من أن تفعله قبل مغادرتها.

هنالك أمر يا ليلى لابد لي من متابعته هنا أولًا، قبل مغادرتي تعز، إنها فرصة قد لا تعوض.

ليلى: وما هو هذا الأمر؟

داليا: ابنة خالي سارة، يعمل زوجها كطبيب في قسم المختبر بالمستشفى الذي يتعالج فيه موشيه.

ليلى: وماذا في ذلك؟

داليا: هنالك أمر، لو تم تنفيذه بدقة؛ فسيحقق لي أمرًا كنت أنتظره بفارغ الصبر.

ليلى: بماذا تفكرين يا داليا؟

داليا: فحص DNA.

ليلى: ماذا تقصدين؟

داليا: أريد من الدكتور سليمان بأن يقوم بعمل هذا الفحص لموشيه، ولي.

لو تحقق التطابق يا ليلى؛ والذي أنا متأكدة منه، فسيكون ذلك دعمًا كبيرًا لقضية الأطفال داخل إسرائيل.

ليلى: فكرة جميلة، وفرصة قد لا تتكرر، لنذهب غدًا صباحًا للمستشفى، وسأقنعه بنفسي، وسأطلب من ابنة عمي سارة المساعدة لو احتجنا لذلك.

في صباح اليوم التالي توجهت داليا وليلى إلى المستشفى.

لم يكن الأمر كذلك قبل الحرب، زحام في كل العيادات، فما إن يخرج مريض حتى يدخل آخر.

بكاء أطفال، وسيدة تطلب من الطبيب أن يقلل لها عدد الأدوية قدر استطاعته، لتشتري بما سيتبقى من ثمن الدواء طعامًا لتتناوله قبل تناول ذلك الدواء، وأخرى تطلب من الطبيب أن يصرف لها دواءً يمكنها تناوله دون طعام.

كل شيء ليس على ما يرام خارج المستشفى، فكيف بداخله؟

إنها صورة أخرى من صور المآسي التي تتكرر كل يوم في هذا البلد.

دخلت داليا وليلى إلى غرفة الدكتور سليمان، والذي تفهم الأمر، ووعدهم بالتعاون، خاصة وأن مكوث موشيه في المستشفى سيطول بسبب العمليات الجراحية التي يحتاج إليها حتى يعود إلى طبيعته، ويمشي من جديد.

بعد أيام بدأ الدكتور سليمان بأخذ العينات من موشيه، كإحدى الأمور التي يحتاجها في مراحل العلاج، وكذلك فعل مع داليا.

كان يفعل كل ذلك بحذر، وسرية.

مر شهر، وتماثل موشيه للشفاء، وخرج من المستشفى.

في صبيحة أحد الأيام اتصل الدكتور سليمان بليلى، وطلب منها الحضور مع داليا للأهمية.

توجهت ليلى وداليا للمستشفى، وما إن دخلتا حتى أعطاهما نتائج الفحوصات.

إن التحاليل أثبتت قوة القرابة بينكِ وبين موشيه، وأؤكد لك من خلال التحاليل بأن جدتكِ سارة كانت صائبة حينما قالت بأن شعيب هو ابنها الذي فقدته.

ليلى: أمتأكد؟

الدكتور سليمان: لقد تأخرت عليكم بالنتيجة لأني عرضت التحاليل على مستشفى في لندن، يعمل فيه صديق لي، وقد زودني بتقرير مرفق لكم مع تقريري.

فرحت داليا كثيرًا بالنتائج التي توصلت لها.

أخيرًا، ظهرت نتائج ستسعد الأسر، وستبعث فيهم الأمل، وستدعم ملف قضيتهم، وسيكون ذلك سبقًا صحفيًا بالتأكيد.

خلال أسبوع كانت داليا قد نشرت تحقيقًا جديدًا عن الموضوع، زودته بنتائج التقارير التي تحصلت عليها من لندن.

هذه النتائج كان لها تأثيرًا كبيرًا في الرأي العام داخل إسرائيل، وعرض الجهات المسؤولة لحرج كبير.

لقد أرسلناك لتنفيذ مهمة ، لكنك كنت طعمًا سهلًا لصحفية شابة يا موشيه، استغلت وجودك، وأجرت عليك ما تشاء من تحاليل، لقد خيبت ظني فيك.

بهذه الكلمات وبخ الضابط إيزاك موشيه، وأمره بسرعة تصفيتها، وإنهاء آخر الملفات في اليمن، والعودة بأسرع وقت.

إنها المهمة الأخيرة له في اليمن قبل مغادرته، وقبل أن تكشف داليا أمر وجوده للرأي العام.

لقد اكتفت داليا في تحقيقها الصحفي بتقرير مستشفى لندن، دون الإشارة إلى وجودها وموشيه في اليمن.

هي أرادت من هذه الخطوة أن يكون أمر كشف وجود موشيه في تقرير آخر خاص بالآثار.

لقد كشفت من خلال ذلك التقرير الكثير من جرائم تهريب الآثار لجهات خارجية، بل أن هنالك أسرارًا انكشفت لها أثناء تقصيها؛ متعلقة بجزيرة سقطرى، والتي تحتوي على كائنات

حية، وأشجار نادرة، لا توجد في مكان آخر في العالم، بالإضافة لموقعها الاستراتيجي المهم على المحيط، مما جعلها مطمعًا للكثيرين، وهدفًا لاحتلاله.

لقد حققت مقالاتها حول الآثار في اليمن، والمواقع التاريخية، صدى عالميًا، سلط الضوء على تلك الملفات، وكشف الكثير من الجرائم والمؤامرات.

أبلغ التاجر صبحي، أو بمعنى أدق الضابط صبحي؛ الأجهزة الأمنية في صنعاء بأن هنالك صحفية يهودية، من أصول يمنية، اسمها داليا يارون، هربت من إسرائيل، وتقيم في اليمن، مهددة بالاغتيال، من قبل ضابط إسرائيلي، دخل اليمن بجواز سفر مزور.

التاجر صبحي ما كان إلا ضابط مخابرات مصري، يدخل إسرائيل لمهام استخباراتية، ولم يكن تاجر تحف كما هو معلوم لدى الجميع.

بعد نشر داليا لتحقيقها الأخير بخصوص أطفال اليهود اليمنيين، وبعد أن نشرت كذلك تحقيقًا بخصوص الآثار، وتحقيقًا آخرًا بخصوص تعدد الفصائل في اليمن، وتناحرها خلال الحرب الأخيرة، وأهمية الوحدة بين كل الفصائل ومكونات الشعب، قررت ترك تعز، والتوجه إلى الحديدة، وذلك بعد أن علمت بسؤال موشيه عنها في كل الأماكن التي من الممكن أن تتواجد فيها.

كانت الحديدة هي المكان المناسب لها خلال الفترة القادمة، ولو بصورة مؤقتة.

اختارت الحديدة لأن هنالك صديقة لليلى من الحديدة، هي الدكتورة منال، كانت أستاذة في جامعة تعز قبل الحرب الأخيرة، ثم استقرت بعد ذلك في الحديدة عند بدء الحرب، حيث تقيم أسرتها هناك.

في صباح يوم مشرق أرادت داليا أن تودع تعز، في يومها الأخير قبل أن تغادرها.

تعز.. تلك المدينة التي عشقتها، وعشقت أحياءها، وأزقتها.

في كل شارع لها فيه ذكريات، وقصص.

أصبحت موطنها الذي أشعرها بوجودها في مكان هو لها، وهي له، ولا تقاسم فيه أحد.

شمس مشرقة، وسماء صافية، تتخللها سحب؛ أصرت هي كذلك على الحضور في هذا الصباح، لتنثر دموعها على هيئة قطرات مطر، وكأن تلك السحب، شعرت مع تلك الشمس، وتلك السماء بمغادرة داليا، فحضروا جميعًا في وقت واحد لتوديعها.

كان يوم جمعة، والشوارع خالية من المارة.

خرجت معها ليلى كعادتها.

داليا: سأسألكِ سؤالًا يا ليلى؟

ليلى: ما هو؟

داليا: كيف أسلمتِ؟

ليلى: كنت أريد إخفاء الأمر عنكِ إلى اللحظة المناسبة التي أبادركِ فيها، لكن طول إقامتك معنا جعلكِ تكتشفين ذلك فتحينت فرصة لنتناقش، وكنت أريدكِ أن تأتي بالفرصة.

لقد ولدنا مسلمين، فقد أسلم والدي مع إخوته في جامع الأشرفية، فهمت ما تريدن قوله يا داليا.

داليا: نعم، إنكِ تفهمينني جيدًا يا ليلى.

ليلى: كنت أريدكِ أن تسلمي دون تأثير من أحد، أو تقليد لأحد، كنت أريدكِ أن تنظري للإسلام بعين تجرد.

داليا: وهذا ما كان مني.

ليلى: هل تعرفين أبعاد قراركِ هذا؟

داليا: بالتأكيد، لقد صليت اليوم صلاة الفجر لأول مرة في غرفتي، وشعرت براحة لم أشعرها من قبل، تفاصيل كثيرة وجدتها هنا، أشعرتني براحة أكبر، أمل بحياة أفضل في الآخرة؛ هي حقيقة صبر الجميع هنا على صعوبات الحياة.

لقد شعرت هنا بأني في مكاني، في وطني، لا يوجد هنا من يقول لي: أنتم أحتليتم أرضي، انظري إلى بيت جدي، لقد بني من تراب، وطين الأرض التي ولد فيها، أرى بيت جدي هنا،

وأتذكر منزلنا في إسرائيل كيف أنه بني من أشلاء، ودماء أهل ذلك المكان، كنت عندما أخرج صباحًا لاستنشق هواء القدس؛ فأرى نظرات قاتلة من طفل فلسطيني ذاهب إلى مدرسته يصوبها تجاهي، كانت تقتلني تلك النظرات، لقد كانت أقوى من الرصاص، تحمل كلامًا كبيرًا.. لماذا أنتم هنا؟ في مكاننا؟

لقد تجمعنا من دول شتى؛ لنستولي على مكان ليس لنا، إننا في إسرائيل مجرد أدوات لتحقيق أهداف لهم هم فقط، خاصة نحن، اليهود الشرقيين.

في هذه الأثناء، وبلا موعد يظهر لهما موشيه.

يترجل من سيارته ويوجه كلامه نحوهما:

لقد لعبتِ دورك جيدًا يا داليا، أهنئكِ، لقد كنت رائعة، حققتِ ما تريدين تحقيقه.

داليا: ألم تتأكد بعد أنك ابن عمنا، وأن هذه الأرض هي أرضك، وليست تلك الأرض.

موشيه: هراء، هل تتوقعين أنني سأصدق هذا الهراء.

ليلى: لماذا أنت هنا يا موشيه؟ هل تظن أنك ستحقق ما تريد.

موشيه: أنا هنا لأستعيد حضارتنا.

ليلى: هل مازلت مصدقًا بأن تاريخكم الحديث يملك ماضيًا؟

موشيه: إن لنا حضارة في جزيرة العرب تمتد لآلاف السنين، فكنوز سليمان في قصور بلقيس، ولنا في باب موسى، وغيره حكايات.

ليلى: هل تعرف شيئاً عن باب موسى؟

موشيه: بناه اليهود تخليدًا لنبي الله موسى.

ليلى: من أخبرك بذلك؟ أنت ومن أرسلك تعلمون جيدًا بأن ذلك غير صحيح، هل تريدون أن تصنعوا لأنفسكم تاريخًا مزيفًا؟

أدعيتم الكثير من الأمور هي لأهل الشام، والآن تريدون أن تنسبوا لأنفسكم أمورًا هي لليمنيين، إن ارتباطنا بنبي الله موسى بُني على الصدق والاتباع، ولذلك نحن أكثر ولاءً لموسى منكم، لأننا اتبعنا هديه، وآمنا بمن هو بعده.

إن باب موسى يا موشيه لم يكن باب نبي الله موسى الذي تحته كنوزه، فالصهاينة يبحثون عن أي خيط ليدعوا من خلاله تاريخهم المزيف، باب موسى هو باب من أبواب تعز، حديثة البناء، لكنه أقدم من تاريخ دولتكم المزعومة، بل وأقدم من وجود دول أخرى كثيرة غيرها.

داليا: إن باب موسى مصنوع من حجارة، وليست العبرة بتلك الحجارة يا موشيه، بل بالروح التي كانت عند اليمنيين فخلدوا ذكره، فالآثار تستمد قيمتها من ذلك الإنسان، من روحه، فهو من صنعها، وخلدها عبر العصور، ولو ذهبت يا موشيه إلى جزيرة خالية؛ فلن تحييها إلا بما تمتلك أنت من روح، وليس بما تملك تلك الجزيرة من آثار، وإن الروح نستمدها من عقيدة صادقة، وعزيمة قوية للبناء.

إن اليهودية يا موشيه ليست عادات وتقاليد لنحافظ عليها، وننغلق داخلها، بل هي رسالة نُكمل طريقها، ولذلك أعلن لك، ولغيرك، بأنني قد أسلمتُ بدين محمد، اتباعًا لموسى.

موشيه: أيتها الخائنة، لابد من قتلكِ.

أخرج موشيه مسدسه، ووجهه نحو داليا ليقتلها، وقبل أن يطلق رصاصته، انطلقت أخرى من مصدر مجهول، أصاب قلب داليا، فسقطت على الأرض، مضرجة بدمائها.

سقطت، فسقت بدمائها أرض يمن عادت إليها؛ فتقبلتها بقبول حسن، وتقبلت دماءها التي أصبحت تجري في أعماق هذه الأرض لتسقي جذورها، ولعل تلك الدماء تنبت الأمل من جديد.

سقطت داليا وسقطت معها ليلى تحتضنها، وهرب الجميع من المشهد: موشيه، والمجهول الذي أطلق الرصاصة، وتلك السحابة بعد أن غسلت بقطراتها جسد داليا، لتفيض روحها طاهرة إلى بارئها.

مشهد أخير:

شمس مشرقة، أجواء ربيعية، جبال خضراء، بيوت مهدمة من قصف أصابها، طرق مغلقة، نقاط تفتيش لفصائل متعددة، مئذنة مسجد، مصلين، شوارع مزدحمة تنبض بالحياة، مدارس تردد النشيد الوطني، فتاة في محاضرة، شاب في معمل، شاطئ بحر، منتزهات، مُزارع سعيد بحصاد موسم البن، وفي مكتب من مكاتب جامعة تعز؛ تجلس الدكتورة ليلى

على مكتبها، وبيدها قلم تكتب به الصفحة الأخيرة من روايتها التي يتصدرها عنوان (باب موسى):

لقد ماتت داليا، ولا ندري أي حقيقة كشفتها كانت سببًا لموتها، أهي قضية الأطفال؟ أم تهريب الآثار؟ أم دعوتها لتوحيد صف اليمنيين؟ لكن التي قتلتها كانت رصاصة واحدة، انطلقت من مسدس واحد، وكانت كافية لتخبرنا بأن كل تلك القضايا مصدرها واحد، وإن تعددت الأدوات.

النهاية

رواية

باب موسى

محمد علي الدباسي

دار الرونق للنشر والتوزيع

تصميم وإخراج حبيب

9 786339 952883